

الكتاب

الكتاب



Bibliotheca Alexandrina



0146740

الكتاب

باحثة البادية

مكي زياده

باحثة البادية

مؤسسة نوفل
توزيع

جميع الحقوق محفوظة للتأثير
الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

© مؤسسة نوفل ش.م.م.

بيروت - شارع المعاصري - بناية نوفل - ص.ب. ٢١٦١ - ١١
تليفون : ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ - تلکس : نوشت : ٢٢٢١٠ لبنان

باحثة البادية

دراسة نقدية



باحثة البادية

وهي المرحومة ملك حفني ناصف حرم عبد الستار بك الباسل

مقدمة

لما اقترحتُ على كاتبة الفصول التالية^(١) أن تتحف «المقتطف»^(٢) بملخصة ما كانت باحثة البادية تنادي به لم انتظر أنها تعنى بقراءة كل ما كتبه الباحث وما يضارعه مما كتبه قاسم بك أمين وتعرض خلاصة ذلك للقراء على صورة تحتلب الأبواب بحسن بيانها وبديع انتساقها وقوة حجتها وتكون نموذجاً جديداً للنقد في العربية بالأسلوب الذي جرت عليه فإنها مهدت لكل فصل من هذه الفصول وختمته وعلقت عليه من آرائها الخاصة وأقوال أئمة الكتاب بما يدل على واسع علمها وبُعد نظرها وعلى أنها جارت أكتب الكتاب الأوروبيين في هذا النوع من البحث والانتقاد . ولا أتذكر أنني رأيت حتى الساعة من ضارعه فيها من كتاب العربية ولا من فاقها من الأوروبيين . والظاهر أن هذا رأي كثيرين غيري حتى اقترحوا عليها جمع هذه الفصول وطبعها على حدة ففعلتُ وأضافتُ إليها كثيراً مما له علاقة بهذا الموضوع .

وبعد فليس غرضي من هذه السطور التنويه بكاتبة هذا الكتاب لأن القراء يعرفونها كما أعرفها بل إبداء رأيي في كتاب أخرجه للناس ناظراً

(١) وهي الآنسة ماري زيادة كريمة الياس بك زيادة صاحب جريدة المحروسة التي توقع ما تكتبه عادة بكلمة «مي» .

(٢) المقتطف : مجلة يعقوب صروف الصادرة في مصر إذ ذاك . (الناشر) .

إليه من أربعة أوجه وهي الأسلوب والإحاطة والتعليق واللغة . وسأكتفي بالإشارة الطفيفة إلى كل وجه منها وإلا لزمني أن أنشئ على الكتاب كتاباً أوسع منه إن استطعت .

١ - الأسلوب : أسلوب الكاتبة في هذه الفصول غاية في الإحكام . أنظر إلى التمهيد الذي عقدت له الفصل الأول والثاني فعرفتُ القراء بنفسها وبباحثة البادية وبما بينهما من الرابطة الأدبية . ثم تدرجتُ إلى التفصيل فوصفتُ وجه الباحثة وعقلها وأسلوبها في الكتابة - صورتها لعين القارئ كما كانت تراها بكل معانيها حتى يحسب من يقرأ ما اقتبسته من أقوالها انه يسمع شخصاً يكلمه بصوته الحي ويعرف هويته وأمياله . وجرتُ على هذا الأسلوب في كل فصل من هذه الفصول فإنها مهدتُ له تمهيداً فلسفياً حسب موضوعه لتتدرج بالقارئ إليه وتعدُّ انتباهه إلى ما فيه من رأي أو إنقاد أو نصيح أو أمر معروف أو نهي عن منكر . ثم نثرتُ أقوال الباحثة المرتبطة بموضوع ذلك الفصل وشرحتها وعلقتُ عليها ما يزيدُها بياناً أو يزيل ما فيها من شبهة أو يخالفها فيما ترى مخالفتها فيه . ولما استطردتُ إلى المقابلة بينها وبين قاسم بك أمين ، جرتُ على هذا الأسلوب عينه في الفصلين اللذين عقدتهما لذلك . ولعلها انصفتُ قاسم بك أمين مثل أعز أصدقائه الذين كتبوا عنه . وما غرضها إلا انصاف الموضوع الذي تكتب فيه والغاية التي ترمي إليها وهي إصلاح شأن المرأة .

٢ - الإحاطة : وأي إحاطة فإنها بحثت فيما كتبه باحثة البادية كإمرأة مسلمة مصرية كاتبة ناقدة مصلحة . ومن الغريب أن عقلها الجامع البَحاث أشار إلى هذه الصفات كلها قبلما كتبت سطوراً من هذه الفصول كأنها نظرت بعين بصيرتها إلى كل ما كتبه باحثة البادية فرأته تتجلى فيه بصفاتها المذكورة آنفاً فلم يتعذر عليها أن تستخلص منه حقائق كثيرة أبدت نظرها . أحاطت بالموضوع من كل جهاته وعززته بآراء الباحثة وأقوالها وبما مهدته لها وعلقتها

عليها . ولا نظن أنها تركت زيادة لمستريد . وكل من جاني البحث في مؤلفات الغير المتشعبة الشؤون يعلم ما في الإحاطة بمناحيها من المشقة . ومن من الكتاب لا يود أن يتاح له مثل الآنسة ميّ تحيط بما تكتبه وتشرحه وتعلق عليه تعليق انصاف ولو كان انتقاداً ولكن هيات فإني لم أر حتى الساعة كتاباً مثل هذا في العربية .

٣ - التعليق : هذا في نظري من أبلغ ما كتبه الآنسة ميّ فإن مدركات العقل مهما كثرت لا تفيض بقوتها وغناها ومجدها إلا لدى احتكاكه بعقل آخر مضامٍ له . حيثئذ تتنبه النفس إلى ما خزنته من المعارف وما وصل إليها بالإرث من الآباء والجدود وتنهض القوة الناطقة قوة الاستحضار والتمثيل والـ ' ' وتنهض الباهة وتنبت المبدأ الفياض إلى سرد الأمثلة والأدلة وإقامة البراهين الخطائية والمنطقية وتأييدها بالحقائق العلمية والمسلمات العرفية والشواهد الاجتماعية . وهذا كله ظاهر في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب . فهو كتابان كتاب باحثة البادية أو خلاصة ما كتبه في موضوع النساء وكتاب الآنسة ميّ الذي جمعت فيه هذه الخلاصة وشرحها وعززتها وعلقت عليها زبدة معارفها الواسعة وختمته بالمقابلة بين باحثة البادية وقاسم بك أمين . وألحقت به ما دار بينها وبين باحثة البادية من المراسلات . والكتابان والخاتمة في موضوع واحد هو أهم المواضيع الاجتماعية في هذا القطر ألا وهو المرأة المصرية وكيف تصلح شؤونها فتصلح بها البلاد .

٤ - اللغة : اللغة معربة خاصة بالكاتبة في أسلوبها دالة على ذاتيتها . وكذا تكون لغات كبار الكتاب . يرى القارئ لأول وهلة أن الكاتبة خرجت عن مألوف كتّابنا الأقدمين والمحدثين في كثير من أنواع المجاز والتعابير كأن قريحتها الوقادة رقت بها فوق مألوف العادات وعقلها المبتكر خلق بها في سماء الخيال شأن كل نابغة في عصره فإنه يكثر الابتكار ويكره التقليد . وإذا كان بعض إستعاراتها مقتبساً من لغات أوروبية فذلك ليس بدعة

في العربية . ولا هي أول من فعل ذلك بل قد سبقها اليه جماعة من أساطين الكتّاب مثل الجاحظ والصابي وابن المقفع وابن خلدون فزادوا في غنى العربية بما أضافوه اليها .

وهذا شأن كل الذين ابتكروا لغاتهم مثل كارليل ولورد أفيري وفكتور هيجو ولامرتين ومثل الكتّاب الرومان الذين كانوا يحسنون اليونانية قبلما يكتبون لغتهم . وإدخال الجديد في اللغة ضروري لحياتها وإلا انحطت وتلاشت شأن الأسر التي لا يتزوج أعضاؤها إلا في بعضهم .

وإلى القارئ مثلاً واحداً مما كتبه في وصف باحثة البادية ككتابة حيث قالت :

« وما حاجتي إلى الكلام عنها كاتبة ؟ اننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالمقدرة الكتابية مكتفين بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية لأثبتنا على الورق ما قد سبق وقرره حكمننا الصامت وهو أنها كاتبة كبيرة . يطلق الناس عادة اسم « الكاتب الكبير » على من كتب كثيراً وهم في ذلك مخطئون . ان من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير . لأنه ليس كاتباً على الإطلاق . إنه ينقصه ما يسميه الإفرنج « قماش الكاتب » أي السر الذي يقود الفكر إلى اختيار الألفاظ الصائبة ويعلم اليد صياغة الجملة الملائمة . وينقصه خصوصاً ذلك اللهب الخفي الذي ينشر بين السطور أشباح النور والظلام .

ما هي الكلمة ؟

الكلمة التي تعين الحركة والإشارة والصوت واللون والإنفعال . الكلمة التي تعني أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها . ما هي وما هو سر انتخابها ؟ الأجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة إلا بالكلام فما هي تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها والشفاه وحدود

ثناياها والآفاق واتساعها اللانهائي والليل وعمقه وكواكبه والنفس وعجائب
خفاياها ؟ كيف تنبض في الألفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متقدة بثورة
الشعور وهيجان الغضب وأنين الشكوى ورنين النجاش والظفر ؟ لماذا تهتز
الألفاظ تارة كالأوتار وتلؤلؤ طوراً كأمواج البحر العجاج . ونهمس
حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطلق من سحيق النراري ومبهم الآمال القصوى ؟
قال فكور هوغو أن الكلمة كائن حي^(١) وقد تكون خالقاً ساعة
تجعل المخيلة ترى ما لا يرى . وتنظم القرطاس ألقاً مفعماً بالكائنات الجميلة .
وتصبح سحراً يصير الغائب حاضراً والعلم وجوداً .

إن الإفصاح عن الفكر أساليب جمّة ولكن لا يصلح للكاتب الواحد
إلا أسلوب واحد . وهو الذي يتفق مع ذاتيته .

إن أفلاطون الذي اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ظل ينسخ كتابه
« الجمهورية » إلى عمر الثمانين ليزيده تحسيناً وإصلاحاً . ذلك لأن الكتابه
التي يراها الكثيرون مسألة هيئة أكثر الفنون دقة وعسراً . ولا أظن اكتشاف
القطب أصعب على الرحالة من اكتشاف الأسلوب (هذا القطب الآخر) على
الكاتب الذي عنده شيء يقوله لأن نفسه تفيض به وتحت على اعلانه . كلمات
النفس حركات خفيفة لطيفة . فكيف يتيسر نقل هذه الخفة والطلاقة بالكلمات
البشرية الكثيفة ؟ وكيف تتبع أداة القلم خطوات النفس الوثابة الكثيرة الأهواء
في تموجها وتحنيا المباحث من الفرح إلى الحزن ومن التحنان المذيب إلى
النقمة البركانية ؟ ان ذلك لسر تخلص من القواعد والنصوص وترفع عن أن
تلقيه الضمائر إلى الألسنة . وهو كل مقدرة الكاتب أو كل ضعفه .

فإنباتها الصمت للحكم والعمق لليل والنضبان للحياة والأنين للشكوى
والرنين للظفر واللولولة للألفاظ والتموج للنفس وقولها إن من حملة الأفلام
من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير ولا بالصغير وانه قد يكون

« Car le mot, qu'on le sache, est un être vivant » Victor Hugo (les Contemplations) (١)

يَن سطور الكاتب لب خفي ينشر بينها أشباح النور والظلام وإن البعض يستطيعون أن يرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها والشفاه وحدود ثناياها والآفاق واتساعها اللانهائي وأنه لا يصلح للكاتب الواحد إلا أسلوب واحد يتفق مع ذاتيته ثم قولها « ان من يحاول الوصول إلى هذا الأسلوب محاولة يهوي في دركات التصنع والتكلف وتتعثر قدماءه وقلمه بذيول الزوائد والحواشي الحاضرة بين المتداولات كالحلوى على أطباق حلواني العيد أو يدهامه مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئه الشقي بأنه حُكم عليه بسفُ التبن » كل ذلك من المعاني التي تكاد تكون مبتكرة في العربية وقد أبدتها بأقوال أعظم شاعر فرنساي وأكبر فيلسوف يوناني .

حسبي هذا الشاهد من فصولها للدلالة على بلاغتها في التعبير عما في نفسها وعلى ابتكارها المعاني وإفراغها في قوالب جديدة واستعارات أنيقة وإلا لزماني أن أنقل أكثرها ما كتبتُه تمهيداً وتعليقاً وشرحاً وتفصيلاً . فهل قرأتُ كتب مشاهير الكتاب في أوسع اللغات الأوروبية التي تحسبها فرسخ في ذهنها كثير من أساليبهم وتخيلاتهم التي لم نألفها ، أو نشأت نسج وحدها نظرها يخترق حجب الغيب وجواهر الهوى فيرى فيها ويؤلف منها بدائع الصور ونفائس التراكيب أو هي مجموعة من الاثنين الخلفي والمكتسب . قريبة وقادة تخلق الصور كما تشاء . وعقل مستقل يكره القيود إلا ما وقع عليه الإجماع . وذاكرة كثيرة الحفظ سريعة الاستحضار تسابق قلمها إلى تصور ما يتخيله ذهنها مبتكراً كان أو مقتبساً .



واني أعد الساعة التي اقترحتُ فيها على الآنسة ماري زيادة أن تجول في هذا المضمار من أسعد الساعات التي مرت في حياتي . وبهذه الكلمات أقدمُ كتابها إلى القراء .

يعقوب صروف

بإحثة البادية

هي مَلَك هانم كريمة اللغوي المحقق المرحوم خفي بك ناصف الذي شغل المناصب العالية في وزارة المعارف والقضاء . ولدت بالقاهرة يوم الإثنين من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٨٦ ، وتلقّت مبادئ العلوم في مدارس أولية (مكاتب) مختلفة ، ثم دخلت المدرسة السنية في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٩٣ وحصلت منها على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ وهي أول سنة تقدّمت فيها الفتيات المصريات لإداء الامتحان للحصول على تلك الشهادة . ثم انتقلت إلى القسم العالي في المدرسة المذكورة وحصلت على الشهادة العالية (دبلوم) سنة ١٩٠٣ . واشتغلت بعد ذلك بالتعليم في مدارس البنات الأميرية .

وفي ٢٨ آذار (مارس) سنة ١٩٠٧ اقترن بها صاحب السعادة العربي الصميم عبد الستار بك الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم .
وتوفيت بالحمى الاسبانيولية في القاهرة ليلة الخميس ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨ .

باحثة البادية

١ كيف عرفت

في مثل هذا الشهر كانون الثاني (يناير) منذ سنوات خمسُ اجتمعتُ
بباحة البادية للمرة الأولى . كانت تقضي فصل الشتاء في حلوان وقد دعنتي
إليها على غير معرفة سابقة سوى معرفة القلم ، بعد أن تبادلنا وإياها بعض
الرسائل في الصحف السيارة . دعنتي على أثر رثائي ساعة فقدتها يومئذ فكتبت
تقول : « إني وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها . رأيتك ترثينها بحرقة
فجئت لأمسح دموعك لأنني أحب دائماً أن أمسح دموع المحزون . تعالي
إليّ لتأخذنيها فإنها أحست بشوقي لرؤيتك فأنت تقدمي لمجيتك وتعارفنا .
عثرْتُ عليّ وعثرْتُ عليها لتؤكد لك انك وجدت الصديقة التي لا تخون » (١) .

تُرى ما الذي دفعها إلى ذلك ؟ أهى النفس العلمية التي لا يفوتها سر من
الأسرار ذكرت أنه قدّر عليّ أن أحمل القلم يوماً لأبكي المرأة الجلدة
وأستخرج أمثلة من كتابات المرأة الخالدة ؟

ذهبت إليها والشفق يضرم ناره في قلب الأفق والسحب قد انقلبت هنا
لهيّا ، وهناك أنواراً ، وهناك ألواناً . أي نفس لا ترتعش اغتباطاً أمام

(١) « الساعة المفقودة » . نشرت في المحرسة .

جلال الغروب ؟ والغروب في مصر أبرع جمالاً منه في أي قطر آخر ، وهو يبرز على أبداع ما يكون للسائر في قطار حلوان . مشهد رائع لا ينساه حياته من رآه مرة واحدة . فيه تبدو الأهرام كأنها ما تحجّر من فؤاد الأيام وبعدها في أطراف الأفق يكسبها جمالاً غريباً شفافاً كجمال الأحلام .

على أن اغتباطي بمنظر الغروب في ذيك المساء لم يكن ليلهني عما ينتظرنى من جديد ولا ليحبس عن ذهني أسئلة تتعاقب على فكر المرء قبيل اجتماعه بشخص غريب . إنما نحن نميل إلى الغريب ونميل عنه في آن واحد . وإذا دنت لحظة موعد ضُرب بينه وبيننا للمرة الأولى فإننا لا نتفكّ متسائلين على غير ارادة (وغالباً على غير معرفة) منا : « ترى كيف هو ؟ على أي قرار يوقّع نغمة صوته ، وإلى أي الألوان يقرب لون عينيه ؟ كيف يتسم ويتكلم ويتحرك ؟ بل كيف يفكر ، وأي الأفكار متغلب عليه ، وعلى أي الأساليب تتكوّن الفكرة في خاطره ؟ ترى هل يتغاهم منا الروحان بلغتهما المختلفة عن لغة الشفاه الاصلاحية ، أم نحن الساعة ملتقيان ليعلم كل منا أننا لسنا من وطن معنوي واحد وأن بين مزاجينا هوة لا يزيدها التعارف إلا اتساعاً ؟ »

أسئلة إنما ينحصر الجواب عنها جميعاً في النظرة الأولى التي يتبادلها الغريبان رجلين كانا أو امرأتين أو رجلاً وامراً ، أو خادماً ومخدوماً ، أو نظيراً ونظيراً ، أو كبيراً وصغيراً . وتلك النظرة تُسفر دائماً عن إحدى عاطفتين اثنتين تضاوت من كل منهما الدرجات : فإما التجاذب وإما تقلُّص ، والانعذاب ميل والتقلُّص نفور .

كنت أتدرّج من هذه الأسئلة إلى غامض المعاني التي يحاول علماء النفس استكناها وأردفها بهذا السؤال الواضح : « أهذه المرأة التي سأصافحها بعد هنيهة هي هي الباحثة التي تنشر على الناس أفكارها ، أم صدق الزاعمون أن ليس لها من فصولها إلا التوقيع كما هي الحال عند بعض السيدات الشرقيات

اللاتي تعمّدن التظاهر بالتفكير والتحير ؟ ١٢ .

والجواب عن مثل هذا السؤال قد يظهر في نظرة واحدة أو بسمة ، أو حركة يأتيا الغريب فيستعجلي منها اللبيب حياة ذلك الغريب وقواه الخفية وما يمكنه القيام به من الأعمال . هذا على شرط أن يكون الاثنان من درجة معنوية واحدة أو (Attuned) كما يقول الانجليز .



وصلت اليها وقد تركزش رداء الليل بوشي الكواكب ثم نشرت في الغد وصف زيارتي في إحدى الصحف الفرنسية^(١) فاستعين الآن ببعض ما جاء في ذلك المقال لأني كتبت تحت تأثير المقابلة الأولى . وهالك وصف غرفة الاستقبال :

« قضينا ساعة ونيفاً في غرفة الاستقبال . واللون المتغلب في تلك الغرفة هو الأحمر الحقيقي تتخلله نقوش خضراء فسّنتية ومزيج ألوان أخرى تبدو واهية الخطوط تحت نور الكهرباء . ولم يكن ثمة ما يجبر عن عبوس الحجاب الاسلامي في تلك « الفيلا » الأوروبية بين أثاث دقيق الصنعة ومقاعد فصلّت على أحدث طرز مع ما نشر على الطاولات النحيفة القوائم من الأشياء الفنية الصغيرة التي لا اسم لها وهي من صنع عمال المغرب أو من قلدهم من عمال المشرق الحاذقين » .

كان هتافها الأول هتاف ترحيب وكلمتها الأخيرة كلمة حُب . واستغرقت الوقت بين طرفي الزيارة مناقشة ودية في بعض ما عاجلته الباحثة من الموضوعات كتعليم البنات ، والحجاب ، والسفور ، وكانت تحدثني بصوت أغنّ الرنين تملأه لهجة الواثق مما يقول المعتقد بصلاح فكره العالم أن آراءه مفيدة كل الفائدة لو كان لها الناس تابعين . وإذا وجدت الكلمة العامة

(١) نشر في جريدة « البروجره » الفرنسية .

ركيكة إذا ما عُبرَ بها عن بعض المعاني استعملت الكلمة اللغوية مكانها بنطق عربي فصيح مستشهد بأبيات شهيرة وحكم سائرة تزيزاً لآرائها ، وعلى وجهها هيئة المحقق الجاد وفي عينيها نظرة بعيدة . وإن نحن على هذه الحال إذا بقرية لها قد هبطت علينا من الصعيد على غير انتظار . وكانت باحثة البادية سبقت وقالت لي حين وصولي : « رغب بعض صديقاتي في المجيء للتعرف بك على أنني أردت أن نكون وحدنا في اجتماعنا الأول » .

ولكنها لم تُبدِ انزعاجاً بل ظهر السرور في وجهها وتحولت المرأة المفكرة دفعة واحدة امرأة ضحكة كأنما لم تكن هي التي كانت منذ هنية تستشهد بالمرعي والمتني . وقد ذكرت ذلك في مقالي الفرنساوي :

« جاءت قريبتها من الفيوم فأخذتا تتكلمان عن أشياء يعرفانها وتهمهما معاً . ذكرتا الأقارب والأصدقاء والصديقات والجارات والمعارف وهما تحلفان تارة بالله وطوراً بالنبي محمد مشتركين في الضحك والتكيت بين جملة وأخرى . الزائرة تحدث عن الديار والباحثة تستزيدها من التفاصيل عن نساء الحي والمواشي والخياطة المصدورة والحمى المتفشية في البلد . ثم اتفقتا في الثناء على البقرة الحلوب وهبط صوتهما إلى قرار الأسف لذكر البقرة الصغيرة المتوفاة في الأسبوع السابق . فقلت وقد أسفت لأسفهما :

— « أماتت تلك البقرة المسكينة ؟ »

أجابت باحثة البادية : « ماتت والله ! وكنت أحبها كثير قوي » .

ولكن لا يغرنا هذا الانقلاب السريع من جليل المعاني إلى تافهها ، ولا نخدعنا هذه الضحكة الشبيهة بضحكة فتيات المدارس . ان لهذه المرأة كما لكل من الأفراد التواضع شخصيات متعددة تظهر كل منها في حينها . وهاك وصف ضحكها في المقال الفرنساوي السابق ذكره :

« انها تضحك بسرعة وسهولة وفي صوتها رنين كرنين أصوات الأطفال .

تضحك بكل قواها كمن يضحك من قلب لم يخالطه بعد معنى الكتابة ولم تنزل
بساحته وطأة الموم . وما أشد ما يسر السامع بهذه الضحكة المملوءة طيبة
وذكاء ولو لا أن خيالات الفكر والكتابة تتمايل على جبهتها السمراء الجميلة
لتساءل المرء أهو في حضرة امرأة ذقت طعوم اللوعة والألم ؟ ... » .



نعم إنها التاعت وتألّت . أقول ذلك وإن لم أرها يوماً إلا بين مظاهر
السعادة والهناء . بل لم أقابلها مرة إلا وهي صبيحة الوجه ، طليقة المحيا ،
برآقة العينين ، والبسمة تلعب على شفثها . لكنّ هذه كلها ستائر تسدل على
حركات الحياة الحقيقية حاجبة عن النواظر معانيها العميقة . وهل في وسع من
ذاق مرارة الفكر وحلاوته أن يكون سعيداً بالمعنى الذي يقصده البشر ؟
وإذا فرضنا أنه حاز السعادة على ذلك القياس المألوف ، أتكفي هذه السعادة
الإصطلاحية لحمايته من لبيب الألم النفسي ؟

ولكن لا تنقمنّ على الألم فهو مفدّي الذكاء ومهدّب الشعور ، ومنبه
الادراك إلى معان جمة وأساليب فكرية كثيرة . إنما صاحب العواطف القوية
شقي إذا ما ذكرنا أن هذه العواطف تعذبه في كل حين وتظلّ هامسة له بالشكوى
حتى في أعذب ما يناله من لحظات السعادة النادرة . لكنّ هذا العذاب بعينه
هو ممزق غشاء الجهل والأنانية عن بصر فريسته ، وهو مستترل الوحي على قواد
نهشته برائته حتى أدمته . هو مفعجّر ينايغ النهى . هو يعطي القلم قوة تبدع
من الكلام سيوفاً وبروقاً ، ويحبو اللسان بلاغةً تمتلك القلب لأنها تخاebre
مباشرة بلا وسيط . وماذا عسى ينفع الحديث إن لم يكن مصدره القلب ؟
وما هي قيمة الإصلاح إن لم يكن ناشئاً عن إدراك تكون ليس في العقل وحده
بل في العواطف المسحوقة وما تنبّه إليه من أحتياج كثير ؟ ونظرة الكاتب
ان لم يطلّ فيها خيال القلب المتوجع ليست إلّا بالنظرة الباردة القاصرة التي

لا تنفذ إلى ما وراء قشرة الظواهر ويظل باب النفس ، باب الحقيقة ، أمامها مغلقاً مجهولاً !

إنّ مزاج باحثة البادية العصبي الصفراوي وجنسها النسائي ، وقوة عواطفها وحدة ذكائها - كل ذلك كان مشتركاً في تكوين طبيعتها السريعة الإفعال وواضحاً فيها قابلية شديدة للألم وإستعداداً كبيراً لمشاهدة الأشياء والحوادث من وراء غشاء قائم . اقرأ كل ما كتبه نجد انبثاقاً متواصلاً يخرقه من أوله إلى آخره . وذلك الأنين الذي يكاد يكون ركزاً ينقلب ساعة الوجد الشديد زئيراً وعويلاً .

هذا المزاج النسائي وهذه الذاتية الأدبية ، وهذه الكاتبة التي لم تدون أفكارها (على ما يظهر لي من لهجة فصولها) إلا تحت التأثير وفي ساعة الإفعال ، هي ما أقصد درسه في هذا البحث الذي قسّمته إلى أجزاء ستة هي : المرأة ، والمسلمة ، والمصرية ، والكاتبة ، والناقدة ، والمصلحة . لأن في هذا التقسيم تسهلاً كبيراً لتفصيل الصفات الأدبية والمميزات الكتابية . وسنرى في الفصول الآتية كيف تبرز « الباحثة » قيمة في كل جزء من هذه الأجزاء . ولنا من كتاباتها ما يسند إليه الرأي ويستخرج منه التعليل . بل لنا منها ما يبعث بالأشعة إلى تلك الصفحات التي كتبت عن البيئة المصرية ولها ، فيمكننا أن نقدّر باحثة البادية قدرها ونحب من وراء حجب الموت تلك الذاتية النادرة التي مرت في الحياة كحلم جميل .

أعترف بأنني في حاجة إلى بعض المجاهدة لأتغلب على نفسي مبعدة من أمام ناظري خيالها البسام ، ومحاولة نسيان المرأة كما عرفتها كيلا أتاثر إلا بفكر الكاتبة المنشور على الصفحات البيضاء خطوطاً سوداء . غير أنني أعود فأقول أن التأثير بمعرفة المرء الشخصية ليس بالأمر المذموم بل هو غزير الفائدة . لأن الذين يعرفون كاتباً خارج فصوله يستعينون بتلك المعرفة على قدر تلك الفصول ، ويستخرجون من أحاديثه الشفاهية ما يؤيد أقواله الكتابية ويعززها .

واني لشاكرة « للمقتطف » اقتراحه ، فهو الذي أوحى إليّ كتابة ما أراه الآن عليّ واجباً مقلساً .

فلتخضر الروح العزيزة جلسات أكون فيها وحدي منفردة للبحث في آرائها واستخلاص درر معانيها . ولتتحدّ بدعا الروحية القادرة يدي الجسدية الحائرة لأثبت ما تريد إثباته ولتنثر حكمتها المكتسبة من ديار الخلود فكري الراغب في إدراك ما تعمّدت من المقاصد والساعي في تحديد غاية قصوى رمت إليها وهي ترى فيها كل الخير لإصلاح الشؤون .

٢ المسرة

إن في بعض الناس قوة لا تكفيها النعوت . ليست هي الذكاء ؛ وإن كان الذكاء بلونها بلادة ولا الجمال وإن عدم الجمال ميزة التأثير بفقدانها ، ولا هي . توازن تراكيب الجسم وتناسب الأعضاء ونضارة الصحة وكل هذه تافهة إذا حُرمت منها لأنها العنصر الخفي المحيي الذي يتفعل به الأقوام ويخضعون لسلطوته مريدين كانوا أم غير مريدين . لقد دُعي ذلك العنصر مغنطيسياً وكهرباء ، وجاذبية ، ولطفاً ، وخفة دم ، وخفة روح ، وشفافة . ولكن جميع هذه المعاني ليست إلا أجزاء منه وتشارك معها في تأليفه معاني أخرى شتى .

إنها لقوة عجيبة قد تحوّل ما هو في عرف البشر قباحة إلى جمال فتان : فهي بروق الذكاء المتألقة في العيون وسيل اللطف المتدفق في الابتسام وأغنية الروح المتماوجة في نغمة الصوت . هي سحر الحركة وهي وسم الامتياز ، وهي جلال الهية ، وهي قداسة السكوت . هي المقياس السري الذي يكيف الإشارة ويوقع الخطي ، والشرارة التي تضرم نار الفكر ، والنور الذي يجعل كثافة المادة شفافة . هي اليد العلوية التي إذا حلت لسان المتكلم كان بليغاً ، وإذا أشارت إلى الناظر بدت نظرتة عميقة ، وإذا قادت قلم الكاتب كانت كلماته شائعة فعالة يبقى صداها داوياً في أعماق النفوس .

وكل من عرف باحثة البادية شخصياً أي معرفة الجسد أو معنوياً أي معرفة القلم ، عَلمَ أنها كانت حائزة لهذه القوة التي حارت في تعريفها الأسماء . قد كان يكفي أن يعرفها المرء ليشعر بانجذاب إليها وليحبها . وقد كان يكفي أن يقرأ إحدى مقالاتها ليرغب في مطالعة كل ما كتبت منفعلاً على رغم منه بالنفس الحار المائي فصولها حتى لقد يتبين توهج اللهب المعنوي بين سواد الحروف . عبثاً تبحث هنالك عن الكاتب الذي يعلو بك إلى قمم الإدراك والعرفان ويتدع لك من روحه جناحين تطير بهما إلى الآفاق البعيدة . إن مؤلفة «النسائيات» قانعة بالفرقة التي تسكنها ، والحي الذي تسير بين منازلها ، والبيئة التي هي جزء منها . وحينما تعثر على ما لا يرضيها - وما أقل ما يرضيها ! - تضرب بمؤلفات الباحثين وشروح العلماء عرض الحائط غير معتمدة إلا على ما تختبره بالمشاهدة . وسرعان ما تقابل بين ما تراه عند الغير وما يشبه مما طرأ عليها أو قد يكون مهدداً حياتها . هي عين ترى ما هو كائن فتذكر ما يجب أن يكون . على أن هذه العين لا تنسى لحظة أنها عين امرأة . فما تكاد تلمح خيال اللوعة حتى يحترق القلب منها لهفاً وتلوب ذراته وجعاً . وإذا طرقت موضوعاً تهتر له طبيعتها النسائية من أقصاها إلى أقصاها سمعت منها هذه اللهجة الخلابة :

« انه لأسم فظيع (تعدد الزوجات أو الضرائر) تكاد أنا ملي تقف بالقلم عند كتابته . فهو عدو النساء الألد وشيطانهن الفرد . كم قد كسر قلباً وشوش لباً وهدم أسراً وجلب شراً . وكم من بريء ذهب ضحيته وسجين كان أصل بليته وأخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا ففرقهم أيدي سبا وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون سوء بعضهم لبعض يثأرون ولا ثأر بني وائل وكانوا لولاه متفقين .

إنه لاسم فظيع ممثلي وحشية وأنانية . كم أخرج رجلاً وعلمه الكذب فأفسد عليه خلقه وكم بلر ما لا كان يعده البعض رزقه وكم أحفظ قلب والد على

ولد وكم علم الوشاية والحسد . فإذا ما هوت أيها الرجل بعرسك الجديد
فتذكر ورائك بائسة تصعد الزفرات يتساقط من مآقيها أمثال لؤلؤ عروسك
ولكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلاً . وأخشى الله في صغار ييكون لبكائها
علمتهم الحزن فاستعاروا يواقيت عروسك أعيناً . أنت تفرع سمعك الطبول
والمزامير وهم لا يسمعون إلا دق الحزن في طبول آذانهم وكانوا من قبل
ذلك جذلين^(١) .

قد ينظم الشاعر هذه الزفرات أحياناً عامرة وقد يطلعك العالم الاجتماعي
على سلسلة علله ومعلولاته مثبتاً لك شرّ تعدد الزوجات . ولكن قلما نجد
في قصيدة ذاك وأبحاث هذا تأثيراً يهز نفسك كما تفعل هذه السطور القلائل .
ليس ما قرأته هنا بمنحدر من الفكر أو بناتج عن الملاحظة والتعقيب . بل هو
اضطراب قلب جالت فيه المرارة مكوّنة أناتٍ ما لبث القلم أن وقعهنّ على
وفق ضربات القلب الخافق . إن هذه الفقرة لا يكتبها إلا قلم امرأة .



نحن الذين اعتدنا أن نرى في والدتنا سيدة البيت الدائمة وربة المنزل
المطلقة لا نستطيع إدراك ما هي عليه طائفة كبيرة من اخواتنا من الشقاء
تحت التهديد المتتابع . ولا يمكننا تفهّم الانفعال الدليل المنحدر بهن إلى
مهبط الخوف والقلق واضعاً بين المرأة وبين تقديرها لكرامتها واعتبارها
لنفسها هوة عميقة . وقد فطن أحد مقرّطي «النسائيات» إلى عجز الأمم
غير الاسلامية عن ادراك ذلك فلام الباحثة لوماً لطيفاً إذ قال :

« لقد صورت في ذلك الباب (باب الازدراء بالمرأة) المرأة في نظر
الرجل اليوم على نحو ما كانت عليه في الجاهلية الأولى وهذا أمر قلما طابق
الواقع وهل كان من حرج على السيدة أن توسع المسألة بحثاً وأن ترقب

(١) النسائيات .

اليوم الذي ترجم فيه مقالاتها إلى اللغات الأجنبية فتشتر أحكامها على هذه الأمة في العالم الأوروبي الذي يجهل معنى الغلو البديعي وأنه من المحسنات في اللغة العربية حيث يعتقد الأوروبيون لا سيما نساؤهم أننا اليوم على ما كانت عليه جاهليتنا منذ أربعة عشر قرناً وناهيك بما يحدث هذا القول في العالم المتحضر من الآراء وما يجلبه علينا بعد ذلك من البلاء» (١) .

غار حضرة المتقصد على سمعة قومه فأراد أن لا يقال الحقيقة كما هي حتى ولا في فم من لا ينبغي إلا الإصلاح . ولكن إذا تعدد كتم ما هو جار وسدل الحجاب على شقاء فئة كبرى فلا يكفي تنبيه الباحثة إلى ذلك بل عليه أن يكسر جميع الأقلام الشاكية وأن يُسكت زفرات القلوب المكلومة . عليه أن يثلج دماء الشبيبة الطامعة في توطيد دعائم الأسرة وحفظ كرامة المرأة . عليه أن يتزعزع الأفئدة من الصدور لتكف عن الشعور بلوعة التقهقر العائلي . نعم ليكسر الأقلام ، وليمزق الطروس ، وليسّل الألسنة ليجهل الغرب علّة دامية في الشرق . أما باحثة البادية فلم تفكر قط في ذلك بل أثبتت الواقع بصراحة ناشدة الإصلاح فقالت :

«أي ازدراء للمرأة وعبت بحقوقها أشد من أن نخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرق بينهما وتشتت ملتصقاتها وأي أمل لها في مستقبل مظلم لا تدري متى ينهار بنيانه ؟ إن الدين لا يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا على غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وإنما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت لما أنّ منها النساء البائسات» (٢) .

أين « الغلو البديعي » الذي يشكو منه هنا الأستاذ المتقصد ؟ أين « الغلو البديعي » في ما تقرره الباحثة من ازدراء الشرقيين ، مسلمين كانوا أم مسيحيين ،

(١) أنظر باب التقاريف في آخر « النسائيات » .

(٢) النسائيات .

بالبت في جميع أدوار حياتها وتفضيل الصبي عليها قبل ولادته وبعدها ؟
وأين ذلك « الغلو » من مسألة الطلاق كما هو شائع الآن ؟

نعم إن سهولة الطلاق كادت تلغى من الطبقة العليا ويندر وجودها بين من يغارون على سمعتهم ويفهمون معنى احترام الأسرة من الطبقة الوسطى . ولكن هؤلاء هم الأقلية . والطلاق شائع عند الأكثرية شيوعاً كبيراً . وهاك ما كتبه باحثة البادية بعد الاختبار الشخصي :

« وهذه البادية التي أقطن لا أبالغ إن قلت أن جميع نساها جربن الضرائر . طالما سألت امرأة الحي هذا السؤال : « ترين هل تحين زوجك الآن كما كنت تحينه قبل زواجه من غيرك » ؟ فكان جواب كل من سألت سلباً . وسمعت عن أخريات أنهن يفضلن أن يرين نعش أزواجهن محمولاً على الأعناق من أن يرينهم متزوجين بأخريات . فيا لله ! إلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة » (١) .

ان هذا الموضوع يفتح باب الفصاحة عندها . وإذا قالت حيناً بوجوب الطلاق فما ذلك إلا لأنها ترى فيه ما يخفف شقاء المرأة . قالت :

« والطلاق على مذهبي أسهل وقعاً وأخف ألماً من الضر . فالأول شقاء وحرية والثاني شقاء وتقييد . فإذا كان الشقاء واقعاً على كل حال فلماذا تلتزم المرأة الصبر على الشدة ترى بعينها ما يلهب قلبها ويذمي محجربها ؟ ألا ان حزيناً حراً خير من حزين أسير ! وبعضهم يخادع المرأة الأولى بأن يجعلها حاكمة على البيت معها مفاتيح خزائنه . ولكن ماذا تفيد مفاتيح الخزائن والمحكم على السمن والعسل وأين هذه من مفاتيح القلوب وحب الزوج » (٢) ؟

(١) و(٢) النسائيات .

ألا يحِلُّ اليك أن هذا الرجل الذي يدور على زوجاته وفي يده حزمة مفاتيح يفرّقها لهو من رجال القمر أو سكان المريخ ، أو على الأقل من أشباح الأقاصيص والأساطير ؟ ولكن لا ! إن ذلك مع الأسف واقع على مقربة منا . ومن اخواتنا من هنّ ذكيات الفؤاد جميلات الوجه والنفس لطيفات الشعور شريقات الميول ، وعليهن أن يحتملنه وأن يصبرن على مضضه لأنه أمر داخل في عادات قومهن !

إنّ باحثة البادية لا ينضب ينبوع إجادتها في هذا الموضوع وما أكثر ما تصيب في نقده مستخرجة منه دروساً أخلاقية كقولها :

« تعدد الزوجات مفسدة للرجل . مفسدة للمال . مفسدة للأخلاق . مفسدة للأولاد . مفسدة لقلوب النساء . والعاقل من تمكن من اكتساب قلوب الغير فكيف بقلوب الأهل والعشراء »^(١) .

ثم تشرح كلا من هذه شرحاً وافياً في مقال هو من أجمل ما كتبت . بل هو في تقديري أتم فصولها وأبدعها .



على أنّ مطالبا لا تتوقف عند قلة الضرائر والتفرد في المنزل . بل هي تنكر زواج هذا العصر القائم على الطمع وحب المال وتتطلع إلى تلاؤم الأذواق والتفاهم المعنوي . اقرأ هذا التهكم الممزوج بالغليظ :

« إذا اجتمعوا (المصريون) بسائحة افرنجية أو امرأة غربية تلطفوا لها كثيراً فساعدوها في النزول من عربتها وأمسكوا لها حقيبتها ورفعوا الطرايش (؟؟؟) اجلالاً لها في حين أن أحدهم يستنكف الركوب مع امرأته في عربة واحدة . وإذا سافرت أو انتقلت إلى محل آخر تركها ونفسها كأنه لم

(١) التساقيات .

يكن صاحب الأفكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة . وإذا ازدحمت الطرقات في موكب أو مولد مثلاً رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب كأنه زحام الحشر . فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا ؟^(١)

كثبت هذه السطور منذ سنوات عشر . وإذا بقي هذا الوصف منطقاً في يومنا على جمهور من الرجال فإن هناك عدداً كبيراً من الطبقتين العليا والوسطى قد تغيرت منهم العادات تحت تأثير المدنية ، وفعل السفر إلى أوروبا ومشهد الرحلة العائلية (ولو في الظاهر فقط) عند الغربيين . فصاروا يركبون مع زوجاتهم وبناتهم ويرافقونهن في السفر والترهه . فكثيراً ما يرى الآن الرجل المصري في مركبة أو سيارة وبقربه زوجته ونقابها الأبيض الشفاف يضاعف جمالها الشرقي . ولا ينذر ذلك على طريق الجزيرة والاهرام وفي الجزيرة حيث يكثر الإزدحام أيام الجمع والآحاد خصوصاً ، وفي الأعياد والمواسم الكبرى .

ولئن حملت كاتبتنا على الرجل بلا مجاملة فهي لا توفر المرأة ، على أنها تعطف عليها غالباً حتى في خطئها وعثرتها . وتلوم الرجل لأنه القوي ومنه تنتظر المساعدة والقدوة الحسنى . وبدلاً من أن يستبد بسطوته فيصير سيداً رهيباً هي تريد أن يستسلم لعوامل الحنان فيصبح صديقاً مؤدباً . قالت :

« وفي اعتقادي أن الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه وعلم أن أمراته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة وعاملها معاملة الند للند أو على الأقل معاملة الوصي لليتيم لا معاملة السيد للعبد لما رأى منها هذا العناد الذي يشكوه ولا طاعته حباً به لا خوفاً منه . فبنات العصر الحالي حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الفابرات . فأصبحن لا ترضيهن الكسوة والطعام فقط كإحدى خدم المنزل ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية أكثر

(١) النسائيات .

من ذي قبل ويعلمن أنه إذا لم يكن الحب أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما^(١) .

الحمد لله ! لقد آن لمن أن يفهم ذلك ولو تجرّع عن في سبيله من العلقم كؤوساً ! أليس أفضل للمرء أن يسير نحو إدراك المعاني واستكناه الحياة ولو مخطئاً ضالاً من أن يظل مستكناً في ليل الذل ، راضياً بقيوده ، قانعاً بجهله وهو يحسبه عقلاً وطول اناة ؟ إنما المرأة في موقف الإستعباد دون الجوامد حساً لأن هذه تستعمل أقصى ما عندها من قابلية الحس ، أما المرأة فإن لم تجاهد في تهذيب ما عندها من الملكات كانت قاتلة قواها بيدها . والقوة التي تتبعر مؤدية إلى القوضى إن لم تعرف لنفسها قانوناً هي ذاتها إذا دُرِبَت كانت عنصر الارتقاء الرفيع . ولئن عزّ السير بانتظام بعد ليل العبودية الدامس لأن العين التي اعتادت الظلام يبرها الضياء في بادية الأمر ، لكنها لا تلبث أن تألفه فتتمتع به لاجمة فوضاها مصلحة أحوالها . ليس هذا رأي الباحثة . وستنظر في ما تشير به يوم ندرسها مصلحة . غير أنها لا تنفك عن العودة إلى شعور المرأة ليعتدّ به الرجل ويجعله مقياساً لأعماله وأقواله . فقد تختلف عندها ألفاظ الشكوى غير أن معنى الأئين ثابت لا يتغير . كل شيء في نظرها أفضل من « إيلام نفس المرأة وتغيص حياتها . يا لله ! ليس لها من قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثور » ؟



هي امرأة بكل معنى الكلمة . ومن دلائل ذلك أنها تبدي يوماً خلاصة ما يحول في نفسها وتضطرب له جوانحها ثم يثبُ فكرها في يوم آخر فتبت عكس ما جاءت به قبلاً على خطأ مستقيم . فهل هي مناقضة ذاتها ؟ كلا !

(١) النسائيات .

بل هي مفصحة عن نفس كثيرة التزعات جمّة الميول كأنما هي جوهرة ذات سطوح شتى تلمع في كلّ منهن ألوان جذّابة وأشعة فتانة ، بينا عنصر الجوهرة يظل واحداً . رأيت انها كثيراً ما تستعطف الرجل بلهجة المتوسل المتعمد تنبيه الإشفاق في نفسه . والآن اقرأ واضحك :

« ولا يغيظني أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا . إننا لسنا محلاً لإشفاقهم إنما نحن أهل لاحترامهم . فليستبدلوا هذا بذلك . والإشفاق لا يتأتى إلا من سليم لعليل أو من جليل لحقير فأَي الصنفين يعتبرونا ؟ تالله أنا لنأنف أن نكون أحد هذين . »

بل قد يتأتى الإشفاق من صديق لصديق ومن محبٌ لمحجوب ، وحذف الرحمة من القلب يعني حذف الوداد معها في آن واحد . لأن الإشفاق من العناصر الجوهرية المؤلفة عاطفة الحب . والقلب الذي لا يشعر مع من يحب ولا يشفق عليه إلا قليلاً إنما هو محبٌ حباً ملؤه الجفاف والأناية والبرد الرثيقي .

لماذا يشفق الرجل على المرأة ؟ لأنها تقضي حياتها تائهة في لجج هوة لا يعرف هو منها إلا الشاطئ ، وهي هوة العواطف . للرجل كبرياء الجولات الفكرية والاطماع المتزايدة والقوة البدنية . أما المرأة فهما ارتقت وتناهد نشاطاً ورغبة في تسنّم ذرى الفكر ليست بقادرة على أن تستخرج من نفسها آثار ذلك الإرث الذي أودعتها إياه يد العصفور . وهو قوة الشعور ، قوة الحب التي تخلق من الكائن الترابي العادي إلهة سامية جليلة .

والمرأة القوية القادرة بإرثها النسائي ضعيفة جداً أزاء نفسها . وفي ذلك ما يستدعي الإشفاق والإجلال معاً . وليس الإشفاق بقاتل الاحترام وملاشيه ، بل قد يجتمعان متساندين متعاضدين . فكم تشفق المرأة الضعيفة على الرجل القوي وكم تكون قوته ذاتها موضوع عطفها . وذلك لا يقلل من إعجابها

به بل كثيراً ما ينتبه حبها وينمو ساعة الشعور باحتياجه إلى مساعدتها . فلماذا لا ينمو كذلك حبُّ الرجل تحت فعل الإشفاق ، وكم كان الإشفاق مقدمة الحب ، وهل في القلب المغلق في وجه الرحمة العذبة مكان للحب الأكيد ؟ ولكن لا يحفلن القارئ هذه الوثبة الكلامية من الباحثة ! انه سيسمعها بعد حين عائدة إلى الابتهاال .



لن أحاول وضع رسم معنوي لها ، لأن كل رسم يظل واهي الخطوط
إزاء الصورة التي جمعت فيها نفسها بيدها في السطور الآتية :

« لماذا يا مَيَّ تدعين عليَّ بالعذاب المعنوي ؟ ألا إنما العذاب البدني أخف منه وطأة وأعفى أثراً . على أي جربت كليهما وذقت الأمرين معاً . تقولين « لأنه النار المقدسة » . نعم لقد أعطاني من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لئلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس . تقولين انه « النار التي تطهر » . حقيقةً . انه تلقى وجداني بالتطهير منذ أن كان لي وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لأقل شيء وهذا فيه من الضنى ما فيه . تقررين إنه « النار التي تحيي » . نعم انه أحيا روحي حتى أحرقتها لأنه كان كمصباح سيال كهربائه شديد ولكن فتيلته لا تحتمل « هو النار التي تلين » . هذا ما أبديت ، ولكن ألا تعتقدين أن اللين يؤذي خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وأنه لا يفيل الحديد إلا الحديد . انه ألأنتني حتى صبرني ماء وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة ! ! وختمت حسن تعليقك لعذابى بقولك إنه « النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهب إلى سماء المعاني السامية » . نعم أنتي الآن على أجنحة اللهب ولكني لم أصل بعد إلى السماء ، وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني » ^(١) .
يومئذ حسبت هذه الجملة الأخيرة زهرةً من زهرات البيان ولم أكن

(١) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة .

أدري أنها نبوءة فما تلقيتها إلا اليوم بالتصديق فجاء تصديقي متأخراً ! لقد وصلت الآن إلى « السماء » فإذا وجدت هناك حيث احتجيت عن أبصار البشر متفرغة لاستقبال وجه البقاء ؟ أنها أردفت الفقرة السابقة بهذه الجملة : « فهل يا ترى ستعجبني السماء ؟ اني أشك في ذلك » .

أما أنا ، فأعلم أنها هي التي كانت ذات قابلية للتكيف بقالب الأحوال المارة لم تكن راضية عن « الأرض » وسخطها على هذه الكرة هو الذي جعلها تشك في هل « ستعجبها السماء » لقد كانت كجميع ذوي المزاج العصبي ، والعصبي الصفراوي المستسلمين للكآبة ، شديدة الشعور مع ميل إلى الحزن . وقد قوى ذلك فيها تأثير المطالعة واعترفت به حيث قالت : « أول ما حفظت من الشعر المراثي وأولها رثاء الأندلس . وكنت في حديثي أقرأ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بنفسه الكبيرة وأظنه هو الذي عداني في ذلك وسمم آرائني . رحمه الله اني ألد كثيراً بهذه العدوى »^(١) .

وقد تكون مدينة له كذلك ببعض الحكم المنشورة في فصولها كهذه مثلاً : فانتجربة أرشد معلّم والليل والنهار كفيلاً بتأديب من لا مؤدب له^(٢) .



من الأدوار الثلاثة المهمة التي تستغرق حياة المرأة أي أدوار البنوة والزوجة والأمومة ، كانت تحت تأثير الدور الثاني يوم كتبت « النسائيات » لخروجها من دور البنوة الصرف . ولما لم ترزق ولدأ ينال نصيبه من عنايتها فقد ظل اهتمامها محصوراً في موقف الزوجة ومركزها في العائلة والأمة . نعم إنها بحثت في جميع أدوار المرأة المصرية من الطفولة إلى الشيخوخة ولكنها كانت بالزوجية أكثر اهتماماً منها بأي دور نسائي غيره . أما في أحاديثها فكانت

(١) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة .

(٢) المصريات ، ومزية التوفير نشرت في الجريدة .

تكثر من ذكر أبيها وقرينها مما يدل على مقدار احترامها لهما وتعلقها بهما .
 زرتها مرة وسيدة انجليزية فوجدنا صالونها مملوءاً بالزائرات المسلمات
 من والدات وفتيات ودارت بينهن مناقشة في ما إذا وقع خلاف بين أب
 المرأة وزوجها فأيهما تتبع . فكثرت الأقوال واحتدم الجدل إلى أن قالت
 شابة عروس عام : « مات أبي منذ سنوات خمس فحزنت عليه حزناً
 شديداً وما زلت أبكيه إلى يومي هذا . ولكن إذا مات زوجي أموت معه
 ولن أعيش بعده لحظة لأبكيه » . فاعترضت والدته هذه السيدة بلهجة جعلتني
 أظن أن بينها وبين صهرها سوء تفاهم في أمر من الأمور ، وإنها تود استمالة
 ابنتها إليها . لكن باحثة البادية دخلت بينهما قائلة بلهجة جمعت بين الجد والمزاح :
 « مكثت في دار أبي عشرين سنة ولما تتم لي هذه المدة عند زوجي ... »
 فقاطعتها هنا بعض الزائرات قائلات : « ما هذا ؟ أتجعلين طول الإقامة
 ميزاناً للحب ! »

قلت ان باحثة البادية امرأة بكل معنى الكلمة ، فهي لا تريد أن يعرف
 الجميع خفايا ضميرها ولا تريد أن تخرج زائراتها . وقد كان لديها مع قلمها
 (الذي كان صريه يشبه أحياناً وخز حربة صغيرة غمست في مداد إنما
 هو مزيج من مرارة ولهيب) سلاح آخر نسائي محض ، وهو الضحك ،
 وما يتقدمه من نظرات لطيفات المعاني وما ينتج عنه من إرضاء الجميع دون
 إغضاب أحد ، والتخلص من المواقف الحرجة بمهارة وبساطة .

لو قالت « تتبع المرأة زوجها » لغضبت الأمهات . ولو قالت « تتبع
 والدها » لسخط الأخريات . فلم تقل هذا ولا ذاك بل ضحكت في وسط
 الضوضاء والاحتجاج والاعتراض ضحكة فضية كرنين البلور على البلور ،
 أعقبها بنكتة صغيرة أقفلت باب الموضوع وأرغمت جميع الحاضرات
 على الاشتراك في الضحك . وما كان أجمل ضحكة ثغرها ، بينا شفتاها
 القرمزيتان تتلاسمان بألفاظ مصرية التركيب واللهجة والمعنى !

المسلة

لئن أجملت هنا ما فصلته في النبذة السابقة من حيث أن باحثة البادية «إمرأة» في جميع ما كتبت فيحسن بي الآن المجاهرة بأنها إزاء صفاتها الأخرى «مسلمة» قبل كل شيء. وأي مسلمة هي ! مسلمة شغوفٌ بدينها تغار عليه غيره محبٌ مدنفٌ يقدس الاسم المحبوب ويرى في كل حرف من حروفه عالم بهاء وعظمة ومجد لا يفنى. إن إسلامها لظاهر. في كتاباتها ظهوراً جلياً وأقدر أنها كانت معروفة بالورع بين اخواتها المسلمات. وقد ذكرت ذلك الأنسة نبوية موسى - التي كانت رفيقتها في المدرسة - في خطبة بعثت بها إلى لجنة التأيين وألقيت في الاحتفال المهيّب الذي أقامه لها رجال مصر. هي مسلمة إلى حد إدخال الدين في كل أمر من الأمور سياسياً كان أو اجتماعياً أو أخلاقياً، حتى مسائل الأزياء والزينة والاصطلاحات والأحاديث الثانوية. ومما قالته في أسلوب المحادثة بين الزوجين.

« هناك أخرى تقول لزوجها حضرتك وسعادتك فما هذا التكلف البارد !
 اننا بتسميتنا فلاناً صاحب العزة وتلقينا أحد الملوك بصاحب الجلالة لنكفر ونلحد. فما صاحب العزة وذو الجلالة إلا الله الواحد القهار. ولو أنصف كتابنا لحذفوا تلك الألفاظ الدالة على الشرك في كتاباتهم واقرأهم » ^(١).

(١) النسائيات.

إذا ما وقفت على بدعة مستحدثة ورأت أمراً جديداً سارعت إلى استجواب نفسها هل في ذلك ما يغير الأوامر الدينية . وإذا ساد نظام بين القوم واستحكمت روابطه بفعل المران والاستعمال والملاءمة لشروط الزمان والمكان دون أن يكون مقررأ في نصوص الشريعة السمحاء فهي لا تحفل به كثيراً ، حتى إذا ما أرغمت على قبوله قبلت منه أقل مظاهره ابتعاداً عن الفكرة الدينية . وبما ويلمها عادة لا تروق لها ! انها تثور ناثراً غضبها وتتسلح باسم الدين لمكافحتها ، وبما لحدة سنان يراعيها الذي يصبح في تلك الساعة حربة وخازة ! قالت منتقدة الذين يعلمون بناتهم الرقص والتمثيل .

« لا أعلم عند الافرنجية عادة تساوي « الزار » إلا محاصرة الرجال في الرقص وما يتبع تلك العادة من التهلك والتصنع والميل عن جادة الصواب وما ينشأ عن ابحاثها المطلقة بلا قيد ولا وازع من الضرر البالغ والإخلال بالشرف . وأدهى من ذلك أن ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر فيزعمن انهن يجتنبن الرذائل بمحض ارادتهن وتريتهن . ولكن هل إذا منعت الفضيلة امرأة عن اتيان ما لا يرضي فهل يصح أن تطبق هذه النظرية على كل امرأة ؟ إن النفس لأمارة بالسوء ولقد تقدم على كثير من الموبقات لولا الضمير الحي وهو ثمرة الوازع الديني . أفلا يقولون ؟ أرائنا لا نتمسك شديداً بديننا الحنيف وهذا بدعة وعدوة أتتنا من الغرب . أو كلما رأينا انساناً يفعل شيئاً حاكيناه ، وإن كان في ذلك خسارة ديننا ودنيانا معاً ؟

« إن ذلك (أي الرقص) مناف للدين الاسلامي هادم للفضيلة مدخل لضار العادات بيننا ، فعليتنا أن نحاربه ما استطعنا ونظهر احتقارنا لمن تفعله من المسلمين القليلات اللاتي إذا شجعناهن بسكوتنا لا يلبثن أن يعدين الغير منه » (١) .

(١) التساقيات .

لست أدري هل كثر العاملات بهذا الرأي ؟ إني شهدت من الهوانم
كثيرات ممن اتقن خطوات « البولكا » « المازركا » « الفالس » « والطنجو »
يراقصن صاحباتهن في اجتماعاتهن اللطيفات . فأني مانع يمنعن ؟ وأي
« عار » على امرأة في مراقبة زوجها أو أخيها في المجالس العائلية ، أو مراقبة
صديقاتها في اجتماعات نسائية ؟ إن فن الرقص شرقياً كان أم غريباً ،
رياضة مفيدة للصحة إذا استعمل باعتدال ، فضلاً عن انه يمرن أعضاء
الجسم فيكسبها ليناً ونشاطاً وخفة ويحفظها من النشوة والتصلب ، كما أنه
درس نافع جداً لتحديد الحركة وتسهيل انسجامها ، وهو أفضل مقياس لها .
ويموز مثل هذا القول في التمثيل . إني عرفت سيداتٍ مثلن في اجتماعات
نسائية وسهرات عائلية ، لم أرهن رأي العين ولكن قلن لي إنهن يفعلن .
ومنهن واحدة تعجب بالباحثة إعجاباً شديداً بل هي من أعز صديقاتها اللاتي
يجيبنها حباً جماً ، وقد اجتمعت بها للمرة الأولى في صالون باحة البادية
نفسها . زرت هذه السيدة منذ عامين أو ثلاثة وأخذنا نتحدث عن بعض
الروايات التمثيلية فذكرت رواية مثنية على حسن تأليفها وبراعة تنسيقها ، ثم
قالت : « لقد تقاسمنا أدوارها في الأسبوع الماضي ونحن منبهكات في هذه
الأيام بدرسها لأننا سنمثلها أنا وصديقتاي أمام طائفة من معارفنا وزائراتنا » .
كانت الباحثة في اليوم يومئذ إلا أنها كانت ترسل صديقتها هذه كل أسبوع
تقريباً ، ولا أدري هل علمت بما كان يشغل صاحباتها مما انكرت اتيانه
بالحدة التي تعلم .

أما مسألة « الشرف » فيصعب حلها جداً لأنها من الكلمات التي يستعملها
البشر غالباً في غير محلها ، ولها رنين يقرع السمع بالأجراس ولكنها
في الحقيقة أمرٌ نسيٌّ - كجميع المعاني البشرية . الشرف في اعتقادي أسمى
وأنتهى كثيراً من أن يتلوَّث بالغبار الذي تثيره خطوات « الفالس » بل
هو أرق لطفاً وأصفى جوهرأ من أن تدانيه يد الإنسان . على أي أفهم أن

الباحثة لم تقصد الرقص على الاطلاق لأنها لم تذكر الرقص الشرقي ، بل هي عنت مراقبة الرجال للنساء على الطريقة الإفريقية .

والآن أشعر بأني جالبة على نفسي حكماً شديداً من أبناء الطرز الحديث لما أنا مجاهرة به . انهم ينحنون أمام المرأة المحجوبة ولكنهم لن يكونوا لي من الراحمين . أنا فتاة سافرة تسري عليَّ عادات مجتمع هو أقرب إلى « التفرنج » منه إلى أي نزعة أخرى . وقد تعلمت الرقص واشتركت مع قومي في السهرات الراقصات ولم أرَ فيها شيئاً يصحُّ أن يسمى « إخلالاً بالشرف » ولكني ... ها قد وصلت إلى الخطوة الرهيبة ... ولكني لا أريد للمرأة اختلاطاً كبيراً بالغرباء وأكاد أقول أنني لا استحسن مراقبة الرجال للنساء .

أما الآن وقد فُتحت بهذا الإلحاد الاجتماعي الهائل فقد « نمرني » أهل العصر وحشروني في فصيلة المتقهقرين والرجعيين . اللهم لك الحمد والشكر على كل حال !

وإذا نادى بالاصلاح العائلي استشهدتُ بالله متهددة الظالمين وقالت :

« الا فليتنبه الرجال وليتقوا الله في نساءهم وليعلموا أن التقوى مطلوبة في السر والعلن وإن الله يرى » . « يا قوم تداركوا الأمر ... وسنوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم آخرها إلى يوم الدين والله عاقبة الأمور » (١) .

وقالت في اصلاح طريقة الزواج ووجوب اجتماع الخطيبين قبل عقد الخطبة استناداً إلى ما كان يتم وقوعه في الماضي :

« يرى أكثر عقلاء الأمة أن لا بد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج وهو رأي سديد لم يكن النبي ﷺ والصحابه يعملون غيره » .

(١) النسايات .

« مما يجعل مسألة الزواج عندنا (أي المسلمين) هيئة لينة إباحة الدين الحنيف الطلاق وتعدد الزوجات . ولكن حاشا أن يكون قصد الشارع ما نراه الآن من القوضى في أدق الروابط الاجتماعية ومن نقض عهود الأسر وقلب نظاماتها . فإن الأديان لم تخلق لجلب البؤس وإنما خلقت لإسعاد البشر . »
 « طريقة العرب على عهد النبي ﷺ وما بعده في أمور الخطبة والزواج طريقة شريفة معقولة إذ لم يكن الحجاب حينذاك كما هو الآن . وإني أجاهر بأن حجابنا مقلوب ونظام اجتماعنا فاسد أشد الفساد لا يصلح ولن يصلح أن تتبعه أمة متقدمة » (١) .

وإذا قرّرت بعض مساوئ الرجل وأشارت بأمر عمدت إلى وصية الشارع العربي كقولها :

« اللهم ان رجلاً هذه أخلاقه مع زوجته وهذا مبلغ جشعه لخليق بأن يفارق ولكن المدارة بما أوصى به النبي ﷺ . فلتداره ما أمكن فذلك خير لهما من الخلاف » (٢) .

وقد قالت بتعليم المرأة أصول الدين مرة بعد مرة فصرّحت بمطالبها في الخطبة الأولى التي ألقته في نادي حزب الأمة ثم جعلتها أساساً لإقتراحات قدّمتها إلى المؤتمر الاسلامي المصري ، وخلاصتها وجوب تعليم البنات « تعاليم القرآن والسنة الصحيحة » وأن يباح للنساء الذهاب إلى المسجد لسماع الوعظ والخطب والارشادات الدينية وحضور ما يقام من الصلوات والاحتفالات كنساء الأديان الأخرى من مسيحية ويهودية . وكان لهذه الاقتراحات صدى استحسن عند الجميع حتى عند أرقى المسلمين فكراً وأوفرهم علماً . فكتب الأستاذ لطفي السيد بك في مقدمة « النسائيات » مستصوباً مؤيداً فقال : « ولو صحّ نظري لكانت قاعدة بحثها في تحرير المرأة قاعدة الاعتدال

(١) و (٢) النسائيات .

ورائدها في ذلك الشرع الاسلامي . إلى أن قال : « وقصارى القول إن باحثه البادية قد أجادت كل الإجابة في أن جعلت أساس بحثها تقرير المساواة لا على جهة الإطلاق بل في حدود الاعتدال والدين » .

■ ووردت الآيات التالية في ردّها على قصيدة شوقي بك المشهورة :

في الشرع ليس بمعضل	« أما السفور فحكمه
بين محرم ومحل	ذهب الأئمة فيه
عند قصد تأهل	ويجوز بالإجماع منهم
ب قصري أو طولي	ليس الثقاب هو الحجا
نهما فدونك فأسالي	فإذا جهلت الفرق يـ
ة لا مجال لمقولي	من بعد أقوال الأئمـ
لمة للنساء فاجملي	لا أتبغى غير الفضـ

■ وإن لها في مدارس الراهبات رأياً صارماً جاثراً . قالت :

« وهذه الفئة الجاهلة الدعية في العلم هي ولا شك فئة خريجات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الأهلية الأخرى . وحسبك وقوفاً على مبلغ هؤلاء أن تسألن سؤالاً بسيطاً عن بعض ما يلقيه على مسامعك مثل البيغاء فلا يحرن جواباً . ثم إن أحدهن لتسمعك تاريخ فرنسا ولا تكاد تأخذ نفسها من سرعة الإلقاء ، وإذا سألتها عن عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح وأضرابهم من حماة الإسلام قالت لك لا أدري » . ومدارس البنات كلها في مصر خلا مدارس الحكومة الثلاث لا أثر فيها للنظام وليس فيها إلا نظاهر بالعلم ورياء وهي في اعتقادي لا تصلح مطلقاً لتربية البنات المصريات . وبالجملّة أقول إن أحسن مدارس البنات في

مصر هي مدارس الحكومة أخلاقاً وعلماً على أنها لا تزال تقبل الإصلاح والرقى^(١) .

حسبنا شهادةً لمدارس الحكومة أنها أنجبت باحثة البادية ومن حذّونها . أما المدارس الأهلية التي قالت فيها الباحثة ما قالت فأنا لا أعرفها إلا بالإسم فلا يمكنني تولّي الدفاع عنها . ولكنني أعرف بعض مدارس الراهبات حقّ المعرفة وأناي لأجاهر بأن انتقاد الباحثة لا ينطبق عليها . وقد تكون الباحثة عثرت صدفةً على فتيات « تخرجن في مدارس الراهبات وهن لا يعرفن إلا العزف على البيانو والرطانة ولسن من العلم والتّهذيب في شيء ، وهن على جهلهن هذا شامخات بأنفهن نحو السماء فيقضين وقتهن بين حديث خرافة وخروج في الشوارع وهنّ على العموم أكثر النساء اسرافاً وتبذيراً فضلاً عن البهرجة وقلة الحياء » ، وكنّ سبباً في تكوين حكمها هذا الشديد . ولكن إذ وُجد مثل هؤلاء بين خريجات مدارس الراهبات فلا تعدم أضرابهن المدارس الأخرى ، ويوجد مثلهنّ بين اللائي لم يتخرجن إلا في منازل آبائهن على يد أمهر الأساتذة وأفضل المؤدّبين . كذلك أنجبت مدارس الراهبات نساءً كنّ سعادة ذويهنّ ونور محيطهنّ كما أنه قد يُرى من أفضل النساء في طائفة لم تتلقن العلم إلا من ذكائها الفطري ولم تتناول قواعد التّهذيب إلا من الوجدان السليم .

إنّ تأثير المدرسة وتأثير الوسط عظيمٌ جداً ولكنه ليس له القدرة المطلقة . والأهمية الكبرى إنما هي في قابلية التلميذ وإستعداده . لقد قال أرسطو مرة « إن عقل الطفل كالشمع اللين يكيّفه المعلم كيفما أراد » . فاقبّس هذه النظرية قوم من علماء الأخلاق وجعلوها أساساً لتعاليمهم لكن ما أكثر الذين قاموا يناقشونهم ويدحضون أقوالهم من المعارضين ! ومن البديهي أن المدرسة

(١) النسائيات .

لو كانت ذات فعل مطلق شامل متماثل لما رأينا الفروق الكبيرة بين طلبة المعهد الواحد والاختلاف الجوهري بين تلامذة الفرقة الواحدة المستقين العلم من استاذ واحد المتفعلين بتأثير مؤدب واحد. ترى لماذا لم نخرج لنا تلك المدرسة العزيزة وذلك القسم الدراسي المبارك إلا « باحثة البادية » واحدة لا ثانية لها ؟

لستُ بمدافعةٍ عن مدارس الراهبات لمجرد الدفاع ولكني تربيت فيها سنوات أربع فاخبرتها بنفسي كما أتى اختبارتها في غيري من بنات عمي وقرياتي ومعارفي اللاتي تهذبْنَ وتعلمنَ فيها . لم أجد فيها العيوب المذكورة في « النسائيات » بل ما يناقضها على خطٍّ مستقيم منها الترفعُ الكثير عن الدنيا ، والجري وراء مثل أعلى قلما يترأى في سبُل الحياة العادية ، ورفع النفس إلى ما وراء المراتب ، والاكثار من الصلاة والتطُّرف في العبادة مما يؤهل الفتاة لإعتناق الحياة الرهبانية فتظل مدة بعد رجوعها إلى البيت حائرة في دوائر الهيئة الاجتماعية ، غريبة بين هؤلاء البشر الذين يجهلونها ولا تفهمهم . وعلى رغم تلك العيوب ما زال الآباء يهافتون على هذه المدارس ، ورجال من أفضل المصريين حصافة وأوسعهم علماً يأتمنونها على بناتهم واثقين بأن نوع التربية الذي يملئه بين تلك الجدران الصامته هو من خير الأساليب التهديبية .

أما النقص الشائن في إهمال تدريس التاريخ الاسلامي والتواريخ الشرقية الأخرى وإتقان اللغة العربية فإن اللوم فيه عائد على الأهل . إذ أي شيء يمنعهم عن تعليم ما يريدون لبناتهم بعد خروجهنَّ من المدرسة ؟ وذلك يسهل عليهن يومئذ لأنهن يدرسن مختارات لا مرغعات فيجدن لذَّةً تخلو منها أكثر الدروس المدرسية الجبرية ويقفن على كثير في وقت قليل . إن الأجانب يهبطون ديارنا لترويج لغتهم ونشر علومهم وتاريخهم . وفي معرفتنا للغاتهم وآدابهم وتاريخهم وعلومهم سلاح في بدنا وقوة نجاهد بها في ميدان المسابقة المفتوح لنا ولهم وهم فيه غالباً - غالباً فقط ؟ ! - فائزون .

وهل يكفي المرء في هذا العصر بكونه حافظاً لتاريخ الشرق مستظهِراً متون
سيويه وحواشي الصبان إن لم يكن له إلمام بمعارف الغير مع إتقان لغة أجنبية
واحدة على الأقل ؟ إنَّ ناموس تنازع البقاء ليقضي علينا بذلك وإن أحكامه
لنافذة سواء شئنا أم لم نشأ . فإن لم نسر بحكمة مع النظام سرنا جهلاً ضده .
ومن ذا الذي يستطيع معاندة ما لا يعاند ومغالبة ما لا يغالب ؟ فإن لم نجر
مع دولاب الحياة انقلب علينا فكنا فريسته المنسحقة تحته .

لندرسن علوم الأجانب من جهة ولندرسن تواريننا من جهة أخرى
نكن جامعين بين المعرفين أقوياء بالقوتين . ومن لم يكن مهتماً بشؤونه فكيف
يتوقع من الغير بأحواله اهتماماً ؟



سرى فريق ان باحثة البادية كانت متعصبة . ذلك مما لا ريب فيه وكيف
ينتظر أن تكون غير متعصبة ؟ أليست بشراً ، أو ليس التعصب من أشد
العواطف ملاصقة للنفس ؟ حدثوني عن تسامح من لم يكن متعصباً لأضحك
قليلاً ! من هذا الشخص ومن أي مُدَّنب مجهول في فيافي الفضاء قد هبط
علينا ؟ العالم في مكتبه ، والمحسن في كرمه ، والشاعر في عزله ، والفيلسوف
في تأملاته كل من هؤلاء متعصب تعصباً يتفاقم شره كلما كان خفياً تحت
مظاهر الحلم والتساهل .

واني لأرى استعمال المفرد في التعصب سخيلاً بل هناك تعصبات يجوز
عليها جمع الجمع وجموع المجموع إلى ما لا نهاية له . فالتعصب الجنسي
والقومي والعلمي والفلسفي والأدبي والاجتماعي والحزبي والفردى وتعصبات
أخرى لا أسماء لها تسير موكباً هائلاً سريعاً لا يبرز فيه إلا التعصب الذي ننته
بالدين . قال قائل إن التاريخ سلسلة حروب وإن الشعب الذي لا حروب
له لا تاريخ له ، ولو قلنا إن الحروب إجمالاً وتفصيلاً ليست إلا حكاية

تعصّب البشر لكننا معبرين عن الفكرة نفسها بكلمات هنّ أقرب إلى معنى الصدق .

كثيراً ما أسائل نفسي ترى هل يهدأ يوماً نائراً العواطف المتطرفة وتتوازن قوى الإنصاف فيرتفع المرء بإدراكه إلى أفق يشرف منه على جميع التزعات الإنسانية ؟ ترى هل يفتن البشر يوماً أن كلاً من الميول وكلاً من الأديان ينطبق دون غيره على مطالب فئة واحتياجاتهم ، فلا تطمئن منهم النفوس إلا بالتمشي مع نصوصها ؟ لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، فتى يذكرون ؟ وما يسمونه عند الآخرين تعصباً يدعى عندهم غيرة قومية ونخوة وحمية ، فتى يدعون ؟ ومتى يقولون مع الشاعر :

« هذي المذاهب كلها دين الهــــــدى

كأشعة الشمس اقترقن إلى مــــــدى

والملتقى في مصدر الأنوار^(١)

كانت العاطفة الدينية مختلطة عندها بالمعاني القومية والاجتماعية كما هي حالها عند أكثر البشر ، وإن كانت عند المسلمين أوضح منها عند غيرهم . فإذا تكلمت في اجتماعاتنا في مسائل إسلامية كنت أرى يدها تشير ببطء وعظمة ورأسها يرتفع مفاخراً . فأذكر ازاء هاتين الحركتين كلمة الشاعر الاسباني القائل : « إنما في عروق الشرق جميع الدماء ملوكية »^(٢) ويا طالما لمحت على تلك الجبهة السمراء الجميلة خيالات عز الاسلام تموج بين عقارب شعرها الأسود ! فأحذق إذ ذاك في شفتيها الصامتتين وأراهما تتكلمان بلا حراك ، وجمودهما يُعبّر عن كلمات حائرات عليهما . وقد حسبتهن قول الشاعر :

(١) من قصيدة لخليل مطران .

«En las venas de Oriente Todas las sangres son reales»

(٢) Villegas.

توزع قلبي حِكْم وهو غَالِبُ
وَحَقْدُ عَلَى أَعْيَانِكُمْ يَتَسَعَرُ
ولو كان لي بَأْس على قَدْر غَيْرَتِي
لَكَانَ لَكُمْ مِنْهُ حَصُونٌ وَعَسْكَرُ
أَجُودٌ بِرُوحِي غَيْرِ أَنْ سَبِيلَهَا
الْيَكْمُ كَمَا شَاءَ الْهَوَى مُتَعَذِّرُهُ (١)

(١) من قصيدة لأحمد الكاشف .

٤ المصنّعة

المصرية من باحثة البادية مصريتان : مصرية بظرفها ومصرية بوطنتها .
من لا يعجب بالظرف المصري الذي يبدو أدباً وحسن مجاملة في المعاملات ،
ويتناقله المتحدثون نكاتاً تمرّ في الحديث فتجعله ذا لدعة لطيفة تشرح القلب
وتبهج خاطر ؟ إن لكل من الشعوب صفة كهذه التي يسميها الفرنسيون
(esprit) والأنجلو أمريكيين (humour) وهو رسمٌ جولة الفكر منهم مع ما تتضمنه
من وخز « يفلفل » الأحاديث والمناقشات فيحميها من الملل الذي يتهدد جميع
العلائق البشرية إذا استمرّت على وتيرة واحدة .

تتكوّن الشخصية الجاذبة من عنصرين اثنين : أولهما ثابت لا يتغير وهو
الطبع ، والآخر يفرّو متقللاً وهو الظرف . ولئن كانت قيمة المرء الاخلاقية
وكرامته وعظمته في العنصر الأول وهو القوة الأصلية الجاذبة ، فإن الظرف
(إذا كان طبيعياً لا تكلف فيه) ينقل الانتباه من تعب التوتر إذ يمزج الطبع
الجلديّ العبوس بشيء خفيف رشيق وثأب يرضي دائماً إذا كان خاضعاً
للذوق السليم .

وجميع الأقطار العربية تعترف للمصريين بالمقام الأول في عالم الظرف
(كما في آفاق معنوية أخرى) ويساعدهم على التفرد به لفظهم ولهجتهم

ونكتهم الالذعة . وقلَّ مَنْ من الأوروبيين يفهم ذلك لأن فكرهم على توقُّده وانتباهه لا يستطيع الوصول إلى الدقة الشرقية الخفية . أيكفي التوقد والانتباه لمن يطلب التفهم ؟ أليس هناك صفة أخرى تصيب جوهر المعاني والأغراض بوثبة واحدة ، وهي البداة التي كانت وستظل دائماً قوة النفس الشرقية ؟ وهذه الدقة المتوارية ازاء النظر الغريب أليست هي البادية في السلم الموسيقي عوارض كثيرة التجزئة غريبة الأوضاع ؟ تلك العوارض أخذ بعضها نفرٌ من كبار الموسيقيين في الغرب ونظمها بياناً فنياً جميلاً ، على أن الجمهور الأجنبي ما زال يحسبها خطأً وخللاً موسيقياً في حالتها الشرقية الصرفة . مع أنها هي الجمالة لموسيقانا سداجتها وفعلها الأليم المستحب .

للسان المصري سلطان يعنو له الكلام ، وللمصري سرعة خاطر مدهشة لا تكلّ ولا تنضب وألفاظ كالسلسيل حلاوة . ولكنَّ هذه الميزة تظهر على أتم ما تكون في المصري الراقي الذي يرفع المعاني المتداولة إلى أوج فكره ثم يظهرها جديدة الأنس والسلاسة تتبعر فيها الملح الحساء ورؤوس حراب صغيرة تهدّد بالوخز كثيراً ولا تفعل إلا نادراً .



كل ذلك في باحثة البادية محدثة وكاتبة . خفة الروح ترفرف على جميع سطورها . انها تستوقفك الوقت بعد الوقت بنكتة غير منتظرة وتهكم شائق يناسب الموضوع . كقولها في انتقاد الشراصة العابسة التي يستعملها بعض الشرقيين في منازلهم :

« زرت مرة سيدة من ابتلين بمثل هذا الزواج القاسي وكنا نتكلم وأولادها الصغار يلعبون قريباً منا وبناتها الشابات يضحكن وإذا بهن سكتن فجأة وارتبكت أمهن وغارت أعينهن وعلاهن الإصفرار وقامت احداهن تهرول إلى الصغار لتسكنهم والثانية تسمع على السلم والأخرى ترى ماذا يمكنها

ترتيبه في حجرة والدها . تعجبت من هذه الحركة الفجائية وسألت عن
الباعث لها فأخبرتني السيدة والحزن باد عليها وتكاد لا تنطق إلا هماً « إن
البك ربما يكون قد حضر » . فقلت في نفسي إذا كان كل هذا الاضطراب
وفي حضوره شك فماذا يفعل هؤلاء النسوة إذا قيل لهن « إنه قد والله حضر »^(١) ؟

ظرفها يبدو في الغالب تهكماً سليماً لا مرارة فيه ترطبه البسمة التي
لا تبعد عنه كثيراً ، ويعجبها أن تستعمله لإيضاح أغلاط الرجل . ولو كنت
رجلاً لجلزت لشراسي الزعومة وضاعتها أحياناً لتوحي إلى الباحثة مثل
هذه النكتة المليحة :

« فما أقدر زوج الضرتين على التفتن ! ولو انصفوا لعينوا زوج كل
اثنتين سياسياً أو ناظراً للمستعمرات ! (ولكن الذي يؤسف له أنا ليس
لنا مستعمرات) »^(٢) .

وهذه غيرها :

« يقول لنا الرجال ويجزمون انكن خلقتن للبيت ونحن خلقنا للجب
المعاش . فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند الله » . انهم لو أنصفوا
ولم يتحزبوا لما عيرونا بأننا قليلات النبوغ وأنه لم يسمع بأن أحدانا غيرت
قاعدة في الحساب والهندسة مثلاً . وليفضل أحدهم بإخبارنا عما استنبطه من
تلك القواعد . فنحن نعرف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم أعمالهم
ولكني لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كولومبس لما تعذر عليّ أنا
أيضاً أن أكتشف أميركا »^(٣) .

ودونك هذا الوصف الحي في غاية الحياة لأنه يتطبق على بغض مشاهدات
واقعية . ولكنه يتناول المرأة هذه المرة :

« تسافر المرأة الافرنجية الآن أو البلوية وحدها فتركب القطار أو الجمل

(١) و(٢) و(٣) النسائيات .

وسرعان ما تحمل متاعها أو تحضر من يحمله لها بلا ضوضاء . أما المصرية فلا تسافر إلى محطة قريبة إلا ومعها من الخدم والأقارب من تعطلت أعمالهم من أجلها ثم تجدها لا تكاد تحرك رجلاً لتتزل حتى يتحرك القطار وإذا ساعدها الله (والأولياء !!) ونزلت فما أكثر ما تفقده ولا تجده . ضاعت حفية المصوغات وانكسرت القلة فبللت حبرتها واشتبكت برقعها بفتح العربة فانقطع خيطه وإذا لم يسرع حشمها في التقاط أطفالها فقد يقع أحدهم تحت العجلات صريعاً^(١) .

صدقت الباحثة . إن طائفة من النساء الشرقيات لم تهذب منهن الحركة فإذا مشين شعر الرائي بأنهن متنبهات لحركاتهن مرتبكات فيها . وربما سرن على غير هدى فيصطدمن بما حولهن من أثاث وجدران ويقبلن برغبات ما على الطاولات من إناء ومزهريه وكتاب . قد يكون هذا راجعاً إلى دور الانتقال الذي نحن فيه من التقديم المنبوذ إلى الجديد المحبوب ودور الانتقال يظل أليف الحيرة والخطب والتردد إلى أن يقوّمه المران وتألفه العادة . ولكن من الشرقيات عموماً والمسلمات خصوصاً من هنّ موزونات الحركة موزونات الكلمة يعدّ ما يقتضي معهنّ من الأوقات لحظات أنس وهناء .

يتشتر ظُرف الباحثة غالباً في سطور كما رأينا في النبد السابقة ويجمع أحياناً في كلمة واحدة أو جملة مختصرة كقولها في نقد الحبرة العصرية :

« ان نصف أزارنا السفلي مرط (جونيله) لا يتفق مع كلمة حجاب ولا مع معناها ولا مع الحكمة منه . أما نصفه العلوي فهو كالعمر كلما تقدم قصر . أما البرقع فأشرف من قلب الطفل^(٢) . »

كذلك تظلّ يدها سائرة على هواها والنكتة جزء من معانيها . وقد تدري بها فتضحك لها بعد رسمها على القرطاس ، وقد لا تلفت إليها مطلقاً .

(١) و(٢) « النساءيات » .

فتبقى في إعراضها والظرف يتسرب بين مقاطع الخطاب حتى يجيء الانفعال الشديد يزهها فتطير إذ ذاك من حول صحتها أسراب الملح والنكات والتهكم ويتفرغ اليراع لصبّ مقذوفات العاطفة المشتعلة والشعور المعاني .



أما المصرية الوطنية فضمرة دائماً وإن لم ترفع القناع إلا الوقت بعد الوقت . وربما تكلمت الوطنية أحياناً باسم الاسلام وتارة باسم الشرق بأسره كقولها :

« اننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين في أمور معاشنا ولباسنا وزى بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فإننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الكون إذ يفني الضعيف في القوي وانه لمن العار أن نهمل هذا الأمر يجري مجراه . فأدعوا الكتاب والباحثين للتفكير فيه وفي إيجاد مدينة خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطباع بلاده ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث » .

رأي في منتهى العقل والاعتدال وأخاله يتفق غرضاً مع الجمعية النسائية التي تألفت في هذه الأيام لمقاومة تيار المدنية الأوروبية في هذا القطر . أنا الشرقية المحبة لكل ما هو شرقي أتمنى لكل من أقطارنا طابعاً شرقياً . لكن حسن أن ييسر المرء مدى فكره إلى ما وراء حدود ما يتمنى لأن جدران « التمني » ضيقة أحياناً . ثم إذا مال الإنسان إلى أمر ووجد من نفسه دافعاً يحمله على طلب ذلك الأمر بقوة كان ملبياً نداءً سريعاً منبثقاً من أعماق مزاجه . وكأن خفايا المزاج تعلم أن في الأمر المطلوب ما يكمل منه قوى لم يبرز إلا بعضها أو ان في ذلك الأمر اقتداراً لتنبه قوى جديدة مجهولة . إذ ذلك ما تنفع الآراء وهل يستفيد المرء منها حقيقة ولو تظاهر بالإصغاء والطاعة ؟ إن كان من قوة الارادة بحيث يتيسر له التملص من هذا الانجذاب فهل في ذلك خيرُهُ أم كان خاسراً طرفاً من الظروف النادرة التي تهيئها

الحياة لتوسيع المكثات وإنماء الملكات ؟ تُرى هل فنية قوة اليابان منذ احتضنت المدينة الأوروبية واستخدمت مظاهرها أم تحسب اليابان من الراحين ؟ أما ساعة تتكلم الباحثة بلسان المرأة فهي تحذف اسم الشرق والأقطار الإسلامية ولا تهتم إلا بالمرأة المصرية دون غيرها كقولها :

« إن من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى أنها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق . ففي عصر اسماعيل هجم علينا جيش من الشراكسات انهزمنا أمامه وخرج ظافراً منا بأحسن رجالنا فلم يكن شريف ولا نابه بمصر إلا وأم ولده جارية شركسية من شراء اسماعيل . ثم ابتدأ رجالنا بعد ذلك الزمن يتزوجون بالأوروبيات » . « أما وقد صار الآن بمصر من المتعلمات من يصلحن للزواج بأبناء جلدتهن أفليس من العار أن تقدر على أن تجعل ابنك شريفاً من أم ذات حسب فتختار أن يكون ابن جارية شركسية أو راقصة أوروبية ؟ » . « ألا رب معترض يقول ان قد بطل الرق الآن وإن من يصاهر الترك يصاهر اكفاء . هذا صحيح ولكن الأم تغذي الطفل بأميالها وطباعها كما تغذيه بلبنها فإذا ما حنت التركية لوطنها (وكل يحن بالطبع لوطنه) نشأ متشبعاً بأميالها يحب تركياً ويميل عن مصر وهو معدود من رجالها » . « وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم القطري للإتحاد هو على ما أرى ناشئ عن تشعب أجناس أمهاتهم . فإبن القرنساوية يحب فرنسا وابن الزنجية يذكر خصب السودان وابن العربية يفتخر بمحتده وولد المغربية لا يفتأ يذكر بلده وهكذا أضعبنا وطنيتنا المصرية عن طريق المصاهرة بالأجانب » ، « ثم أجدني محقة إذا قلت أن الدم يحن إلى نوعه فإذا تكافأ الرجل والمرأة في العلم والتربية وكانا مصريين مثلاً فإن الحب بينهما يكون أصدق وأمتن منه لو كانا مختلفي الجنس » ^(١) .

عندي اعتراض صغير على كلمتي « أصدق وأمتن » . إن للحب درجة

(١) النسائيات .

واحدة من المثانة والصدق وتلك الدرجة كعبة تتركها قلوب المخلصين قبل أن يفتنوا لها ، بل أن الإخلاص المجرد من انتباه الشخص المخلص لوقوع إخلاصه كان دائماً من الصفات الودادية الأولية . ثم إن الحب هو العالم الأنور والأفق الأطهر الذي تتلاشى عنده كل جنسية وكل تحزب ، ولا يخطو بابه إلا المخلصون . كلا لا يكون الحب « أصلياً وأمتن » بين مصري ومصرية منه بين مصري وفرنساوية أو انجليزي وزنجية ، إلا إذا أرادت باحثة البادية أن أبناء الوطن الواحد والطبقة الواحدة يكون لهم في الغالب أذواق متشابهة متقاربة فلا يؤكد الاحتكاك فيما بينهم نفوراً . وهي نظرية أصادق عليها نصف مصادقة فقط لأن أخوة الجنسية والطبقة لا تعني أخوة الترات . كم من الناس رأوا أنفسهم منعكسين في مرآة نفوس الغرباء المختلفين عنهم جنسية وعقيدة وأطماعاً ومصالح ، فكانوا معهم متفاهمين متفقين لأنهم وجدوا أن بينهم وبين هؤلاء الغرباء علاقات معنوية وقرباء روحية لم يربطهم مثلها بذويهم وأقرب الناس إليهم ! ذلك لأن للنفوس والبول وطناً غير وطن الجسد . على أن هذا لا ينفي أن أبناء الوطن الواحد أقرب إلى الاتفاق فيما بينهم أراء المصلحة الوطنية .

باحثة البادية تحب كل ما هو مصري . ما ألطف هذه الكلمة في وصف اللون المصري :

« وما أحلى السمرة الجاذبة لو فهمنا معناها . إنها جميلة لأنها جميلة ولأنها مصرية ولو لم يكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفى » (١) .

وكم من رجل وامرأة في مصر يستحقان هذا التعريف :

« إننا في مصر ولكنتا لا نعرفها . رأيت أغرب من مبصر أعشى ؟ إن الاهرام على قيد فلتة العيار من القاهرة ولكن كثيرات منا لم يزرنها والآثار

(١) التسايات .

تخبرنا عنها السائحات الاجنبيات فنبلي جهلاً مزرياً ونعجب مما يقصصن علينا وتاريخنا مبعثر في الأرض من قديم وحديث ولا من تلم به حياً من غير الكتب الجامدة الخالية من الروح»^(١) .

على أن وطنيتها أتم وضوحاً عندما نعالج الموضوع الذي يكثر عودها اليه وهو أن لا يأخذ أبناء هذا الوادي من مدينة الغرب إلا ما لا بد من أخذه ، على شرط أن يصطبغ بالصبغة المصرية ويتسم بالطابع الوطني ، كقولها :

« فانصراف شبابتنا لتلقي العلوم الحديثة في أوروبا يجب أن يكون لخير البلاد لا لشرها . فكما يتعلمون لنفع أنفسهم يجب أن يقرنوا ذلك النفع بنفع مواطنهم أيضاً . فواجبهم الوطني يقضي عليهم بأن يدخلوا كل ما يروونه صالحاً في بلادهم مع الاستغناء عن الأجنبي على قدر الامكان . فصانع التحرير الوطني إذا رأى معامل أوروبا وسرعتها وجب أن يشتري لبلاده الآلات اللازمة لسرعة انجاز العمل لا أن يدخل تلك الصناعة بعينها ويقضي على صناعته الجميلة فيكون قد أقتبس شكلاً وأبطل آخر ، فنحن إذا اتبعنا كل شيء قضيبتنا على مدينتنا . والأمة التي لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة » .

« إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح نحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الأوروبية إلا الضروري النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل . نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة . وإنما لا يجوز في عرف الشرف والاستقلال أن نندمج في الغرب فنقضي على ما بقي لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكسحة الهائلة »^(٢) .

ما أجمل هذه العبارات معنىً ومبنىً وما أوفاهها حصافة وحكمة ! إنها لتستفز الحمية وتدعو إلى التصفيق لها أنا أصفقُ لها بقلبي وراحتي .

(١) و(٢) السائيات .

ليس بين المعاني الاجتماعية ما هو أدعى إلى التحمس والطرب من اسم الوطن لأن الوطن كل شيء . فهو الأهل والأحباب ، والدموع والابتسامات ، وهو القبور الغاليات ومهدُ الذراري المقبلات . هو مجموع الوارثات الأثرية والتاريخية والأخلاقية والعلمية والعملية ، كما أنه الفجر وأجواق بدائعه الذهبية والغروب بسراده المهيّب المنصوب فوق جيوش السحب المتلمعة . هو العلم الذي ترتعش لتلاعب التسيم بأهدابه ذرات القلوب .

نحن الذين أحببنا من مصر جمالها الطبيعي وجلالها التاريخي وعظمتها الأثرية وعذوبة بنينا وبناتها ، نحن الذين أحببنا من مصر كل شيء نعلم أن مصر الحقيقة ، مصر الصميعة ، كانت تلك السائرة عالية الجبهة وراء أعلامها المنشورة . مصر هي تلك الشبيبة الطامح إلى الارتقاء وتلك الأمة التي لها من فطنتها ما يذكرها أن طريق التقدم ليست التخريب والتشويش والتدمير بل الهدوء والعمل والتفكير . مصر هي المرأة المصرية التي أرتنا في هذه الأيام أن فيها ما كنا نتمناه لها وهو ينتظر أن تنبه يد الأحوال ليلو مسطوراً . ما كان أطف البسمات النسائية أيام المظاهرات وراء النقاب الأبيض وما كان أبهج الأعلام المصرية المثلثة الأهلة الموحدة الصليب تلوحها الأيدي الخيفة ! وما أحب الأصوات الشجية الخافتة تشد أناشيد العز وتهف هتاف الحماسة !

لترقد الباحثة بأمان وسلام ان لإخواتها أهلية وطنية كأهليتها . أحبي هنا ما كان عندها من مصرية صادقة وأحيي بعدها كل امرأة مصرية ، ولا أخشى ختم هذا الفصل بهتاف واحد : لتحى مصر !

٥

الكاتبة

« أما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الكتابة فحسبي أن اقرر من غير محاباة انها أكتبُ سيّدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر . بل هي تعطينا في كتاباتها صورة الكاتبات الغريبات اللاتي تفوقن على كثير من الكتاب » .

أحمد لطفى السيد بك^(١)

« إني رأيت في كتابة هذه السيدة حدة في بعض الموضوعات وكأنها معذورة في حديثها لإمتلاك الموضوع نفسها وحواسها فكُتبتُ فيه وهي ممثلة حقاً » .

الشيخ عبد الكريم سلمان^(٢)

« إنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم في ميداني الكتابة والخطابة » .

أحمد زكي باشا^(٣)

(١) في مقدمة « النسائيات » .

(٢) و(٣) أنظر باب التقاريف في النسائيات .

«للهُ درك ان نـــــــثرت ودر حفي^(١) ان نشر»
حافظ ابراهيم بك^(٢)

وما حاجتي إلى الكلام عنها كاتبة ؟ إننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالمقدرة الكتابية مكفين بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية ، لأثبتنا على الورق ما قد سبق وقرّره حكمنا الصامت . وهو إنها كاتبة كبيرة . يطلقُ الناس عادة اسم « الكاتب الكبير » على من كتب كثيراً وهم في ذلك مخطئون . إنّ من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير ، لأنه ليس كاتباً على الإطلاق . إنه ينقصه ما يسميه الافرنج « قماش الكاتب » أي السر الذي يقود الفكر إلى اختيار الألفاظ الصائبة ، ويعلمُ اليد صياغة الجملة الملائمة ، وينقصه خصوصاً ذلك اللهب الخفي الذي ينشر بين السطور أشباح النور والظلام .

ما هي الكلمة ؟

والكلمة التي تعين الحركة والإشارة والصوت واللون والإنفعال ، الكلمة التي تعني أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها ، ما هي وما هو سر انتخابها ؟ الأيجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة إلا بالكلام ، فما هي تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع إستدارتها ، والشفاه وحلود ثنائها ، والآفاق واتساعها اللانهائي ، والليل وعمقه وكواكبه ، والنفس وعجائب خفاياها ؟ كيف تنبض في الألفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متقدة بثورة الشعور وهيجان الغضب ، وأنين الشكوى ورنين النجاح والظفر ؟ لماذا تهتز الألفاظ تارة كالأوتار وتؤلّل طوراً

(١) كان المرحوم حفي بك حاضراً في احتفال التأين الذي أقيم لكرميته وذلك قبل وفاته بأسابيع قليلة .

(٢) من مرثاة شعرية القاها حافظ بك في حفلة التأين .

كأمواج البحر العجاج وتهمس حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطلق من سحيق
الذراري ومبهم الآمال القصوى ؟

قال فكتور هوغو إن الكلمة كائن حي^(١) وقد تكون خالفاً ساعة
تجعل المخيلة ترى ما لا يرى ، وتنظم القرطاس أفقاً مفعماً بالكائنات الجميلة ،
وتصبح سحراً يصير الغائب حاضراً والعدم وجوداً .

إنّ للإفصاح عن الفكر أساليب جمّة ولكن لا يصلح للكاتب الواحد
إلا أسلوب واحد ، وهو الذي يتفق مع ذاتيته . كلنا عالم ذلك . وكلنا باحث
عن الطريقة التي ... فأجارك الله ، يا أيها الباحث ، من الطريقة التي ... إنك
لهوي قبل الوصول إليها في دركات التصنع والتكلف والتعمل ، وتنبه في
فياقي الخلو والتعمر والجفاف . وإذا حاولت النهوض من الدركات أو العودة
من القياقي تعثرت قدمك وقلمك بذبول الزوائد والحواسي الجاهزة بين
المتداولات كالحلوى على أطباق حلواني العيد . أو داهمك مرض الاختصار
الجاف فيشعر قارئك الشقي بأنه حكم عليه بسفّ الثبن لجريمة مجهولة منه
ومن البشر أجمعين .

إن افلاطون الذي اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ظلّ ينسخ كتابه
« الجمهورية » إلى عمر الثمانين ليزيده تحسيناً وإصلاحاً . ذلك لأن الكتابة
التي يراها الكثيرون مسألة هينة أكثر الفنون دقة وعسراً . ولا أظن اكتشاف
القطب أصعب على الرحالة من اكتشاف الأسلوب (هذا القطب الآخر)
على الكاتب الذي عنده شيء يقوله لأن نفسه تفيض به وتحته على إعلانه .
كلمات النفس حركات خفيفة لطيفة ، فكيف يتيسر نقل هذه الخفّة والطلاقة
بالكلمات البشرية الكثيفة ؟ وكيف تتبع أداة القلم خطوات النفس الوثابة
الكثيرة الإهواء في تموجها وتحنيها المباغت من الفرح إلى الحزن ومن التحنان
المذيب إلى النعمة البركانية ؟ إن ذلك لسر تملّص من القواعد والنصوص

« Car le mot, qu'on le sache, est un être vivant » Victor Hugo (les Contemplations). (١)

وترفع عن أن تلقيه الضمائر إلى الألسنة . وهو كل مقدرة الكاتب أو كل ضعفه .

كذلك فيه الحكمُ بالاعدام أو بالخلود . وهناك معيار للوقوف على مقدرة الكاتب ومعرفة النقطة المتغلبة لديه ودرجة ادراكه للسر المكنون ، وهو المقابلة بين ما كتبه هو وما كتبه آخرون في الموضوع نفسه .



لنخفضنَّ بعض صفحات الباحثة بل جميع فصول « النسائيات » لهذا الحكم نجد اللغة في يدها آلةً دقيقةً ماهرةً في تدوين ما تريد . ولا أعرفُ من هو أقدرُ منها على وضع الكلمة في مكانها بحيث أنك لو تعمّدت حذف لفظةٍ من جملة كنت باتراً مجموع المعنى . هي تخبرك عن أحقر الأشياء برشاقةٍ وبلاغةٍ لأنها مصرية كلّ المصرية ، أي أن الرشاقة والبلاغة طبيعتان فيها سبق وجودهما عندها فلم الكاتب . وقد وضعتُ « للكاتب » وصفاً وما كانت وأصفه إلا نفسها في هذه الفذلكة التي هي من أدل ما كتبت على جمال أسلوبها :

« اللسان والقلم رسولاً القلب إلى الناس أو هما جدولان صافيان تنعكس عليهما صورة النفس وما حوالها من الصفات . وإن شئت فقل هما سلك كهرباء بين ذهن المرء ومن يحاطبهم أو يكتب لهم . تنقل عنه رسالة أخلاقه حرفاً حرفاً بلا زيادة ولا نقصان . والفضائل والردائل كامنة في الأشخاص لا يوري زنادها إلا الأقوال والأفعال . فالتكلم والكاتب تظهر أخلاقهما جلياً فيما يقولانه أو يخطانه وإن حاولا إخفاءها لأن الطبع غالب والتطبع سمل بال قليل السر ان وارى شيئاً تظهر منه أشياء . والفكرة وإن جانبها لا تزال تحوم حواليك وترفرق إلى أن تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب »^(١) .

(١) « النسائيات » .

« الفكرة التي تحوم وترفرف » لا تجد عند الباحثة « مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب » إلا البيئة التي جعلتها موضوع اهتمامها . وإذا خرجت من هذه بالفكر حيناً جاء ذلك للمعارضة وتقوية الحجة ووجوب قياس القريب على البعيد كتمثيلها الطبيعة هذا التمثيل المترسل :

« فالسما معقودة على الأفق في مصر وهي كذلك معقودة على الأفق في اليابان وفي جرينلاند . لم يضع الله لها عمد المرمر في ايطاليا ولا قوائم العاج في السودان ولم يقرّها على حوائط البلور في النمسا . تيرها الشمس نهاراً (إلا في القطبين) والقمر ليلاً وقد نثرت فيها النجوم ثراً إلا قليلها فهو مظلوم . ولم يشأ الله وهو قادر أن يجعلها كلها في شكل عقود وتيجان وأن يرسمها دوائر مثلثات مرصوفة رص البلاط الملون وهي مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر . والأرض بسيطة أيضاً لا تحول لنظامها . فالصخر يفتته توالي الرياح والمطر فيصير رملاً . والرمل تسفيه الرياح ويعجنه المطر فيكون صخراً . والبلر ينبت إذا لقي رياً وأرضاً صالحة . وما أبسط سوق النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الرياح ويثقل عليها ثمرها فيتدل أو يسقط إلى الأرض » (١) .

وما الذي تظنه موجباً لهذه السطور المنمقة بقلم قدير كما أنها تنم عن نفس منبسطة الأرجاء توزّع فيها حب الطبيعة وتفهم الجمال ؟ أنحسبه مشهد شروق أو غروب أو وقفة على جبل شاهق ، أو جوبة بين ضلوع الوادي المخططة بالمياه المتعلّقات ؟ انها استهلّت النبذة السابقة بهذا المطلع : « بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لا يتفق مع ما يريده الله لهما من سكن الواحد إلى صاحبه ويشد عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسل إرسالاً من غير تعقيد ولا إبهام . فالسما معقودة على الأفق في مصر الخ » .

إذا أرادت انتقاد الكلفة بين الزوجين المصريين ليس غير ! وإن ذلك

(١) « النساءيات » .

ليذهلني قليلاً . لأن الفكر الذي يبقى ضيق الحدود ما ظل مستقراً على الجزئيات
ينفتح منه الجناح بانطلاقه إلى الكليات . فيستنسر محلقةً في آفاق بعيدة ،
ويتسع منه الكيان ممتداً في تمدد الكون الذي هو جزء منه . وحينما يصل إلى هذا
المقام من النشوة المعنوية ينحسر لثام الظرفية عن صغائر الحياة ويتموج الجزء
الحقير غارقاً في الكل العظيم فيبدو للمفكر بوجه آخر ومعنى جديد عميق .
ولكن باحة البادية بعد هذه الطيرة الفكرية تهبط إلى ضرب مثلٍ عن أحد
ملوك الصين لتثبت قبح التكلف وحلاوة البساطة ، ولتنتقد المرأة التي تقول
لزوجها « يا سيدي » أو « يا بك » فيناديها هو بقوله « يا هانم » !

ترى ألم تكتب النبذة الأولى في يوم ثم عادت فألحقت بها ما يليها
في يوم آخر ؟



انها كجميع النفوس التي أثقل فكرها ما خلا منه فكر الآخرين فكانت
بذلك منفردة عن محيطها - تتجنب جلبة الجمهور ما استطاعت وتستهيها
العزلة حيث يختمر الفكر وتنضج ثمار التأمل . تحب عيشة القرى والخلاء
بقدر ما تنفر من المدن ميادين الكذب والمشاجرة والضوضاء . وقد أبدت
ميلها هذا في الفقرة الآتية الحسنة :

« قل ما أنقى الهواء وأعذب الماء وأصفى السماء في القرى وما أكذب
الحياة وأقرب الوفاة في المدن . القرى جميلة لأنها على الفطرة . أما المدن
فلا تعدم أثراً للتكلف والرياء . أين دوي الكهرباء من خريير الماء والدخان
المتعاقدين فوق المداخل من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رؤوس
النخل الباسقات ؟ وأين وحل الشوارع وعثرها من أرض كسيت ببساط
النبات ؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شدى
أزهار الحقول ؟ بل ما أوصل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن

هناك سور من نظّر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية في الفضاء»^(١)

«اللانهاية في الفضاء» ! في المدن مجد النشاط وجلال العمران ولكن عين المفكر في حاجة إلى تسريح النظر في المدى الواسع كأنما هي تبحث في أبعاده المتراميات عن حلّ ما غمض عليها من مشاكل الحياة ، أو كأن القلب الحزين يستخرج من عصير الألوان الجوية بلسمًا إن لم يكن شافيًا لسآمته فقيه ما يجلب التلطيف والتسكين .

سمعت مرة فتاة تقول : « ومن ليس جميلًا من هنا (مشيرة إلى العينين) ؟ » وقد كانت مُصيبة . إن من جميع أعضاء الجسم وتقاطيع الوجه ليس أكثر من العينين شفوقاً عما يألفه الذهن من الخواطر وما يلتصق بالنفس من رغبات . العين مرآة السريرة تطلّ منها جميع الخيالات والأشواق فإذا عرفت عين امرئ عرفت ما هو إجمالاً وبعض ما طوي عليه . ولئن كان بعض العيون جميلًا دائماً فإن جميع العيون جميلة في أوقات معينة ، والمعنى النفسي الأقوى تغلباً على الملكات ينيل العينين تعبيرها المقيم .

لم يكن في عيني باحثة البادية ما يدل على أنها اعتادت النظر إلى داخل الوجدان حيث ، وراء الجراح والدماء والآمال المهشمة ، يلمع بصيصُ النور الذي لا يخبو وهو السعادة الحقيقية الوحيدة ، لأنه من الروح ، وللروح ، وفي مأمن من كل شاردة وعادية . ان الباحثة لم تكن على شيء من الروحانية ، وكانت تقلّر الظواهر وتنكّئ عليها في أشياء كثيرة ، حتى في تدينها . وعلى رغم ذلك فإن إدراك « اللانهاية في الفضاء » كان يتأقّق أحياناً في عينيها الباسمتين الكئيبتين ، في تينك العينين القاتمتين لوناً ومعنى . لأن الاحتياج العنيف المندمج في مطاوي النفس البشرية ، ذاك الاحتياج الدائم إلى قوت أثري ، ليس ليقوم مقامه ما تقدّمه الأرض من غذاء وعزاء . وأكثر الذين

(١) «النسائيات» .

لا تسمح لهم شواغلهم بالشعور بذلك الاحتياج يطلقون عليه اسم « الخيال » وهو في الواقع خيال بالنسبة اليهم . ولكنه بالنسبة إلى الآخرين حقيقة ثمينة قد ائتمن عليها أصفى جواهر الإنسان .



كلنا معجبٌ بفصاحة القرآن ونعزو اليه فصاحة العربية عند المسلمين . واستقامة لفظهم وجمال منطوقهم ، وفخامة أسلوبهم الكتابي ، لأنهم يستظهرون آية صغاراً ويستشهدون بها كباراً . إلا أن فصاحة الكتاب الحكيم وجماله قد عوّدا القوم الكسل الفكري . فصاروا إذا ما أرادوا الإفصاح عن رأي أو نظرية أهملوا إجهاد القوى المولدة مطمئين إلى ضرب آية قرآنية - أو حكمة شعرية - مثلاً ، تاركون قرائحهم في حالة الجمود مستكنات ، وعليها خيوط العنكبوت تحميم آمناً . بيد أن هذا الانتقاد الذي يصح على الأكثرية لا ينطبق على أقلية لبيبة إن هي استعملت الآية القرآنية عند الحاجة فإن لها أسلوبها الخاص . وقد تنسج عبارتها على وزن القرآن بتزعة فطرية ، واضعة ألفاظه لمعنى شخصي وبشكل جديد يسترق السمع ويستأسر المخيلة قبل أن يبلغ أفق الادراك . وعند الباحثة مثل ذلك أحياناً ، كهذه الجمل ذات التفصيل القرآني والموسيقى القرآنية :

« ما جعل الله لرجل من قلوب في جوفه فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الأمة وترية أبنائها على حب الاستقلال والدستور ؟ أما والله لو أراتنا رجالنا عناية واحتراماً لكننا لهم كما يحبون . فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعركم يشعرون ، فإذا أرادوا من إصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم وإلا فليظنوا ماذا هم فاعلون » ^(١) .

أظنني قلت قبل اليوم إن أحد أجزاء شخصيتها لا ينفصل عن الأجزاء الأخرى ولا تعمل إحدى قواها إلا بمعاونة جميع القوى . لذلك ترى المصرية

(١) « التساقيات » .

مترجمة دائماً بالكاتبه ، وتتكلم الناقدة والمصلحة بلسان المسلمة والمصرية ، كأنما هي لا تستطيع تجريد نفسها من نفسها . وترسم المرأة في كل كلمة تخطها الكاتبه وما هي إلا امرأة في البدء ، وامرأة بالتالي ، وامرأة دائماً . فإذا ذكرت إحدى مزايا النساء ترنح القلم ثملاً بين أناملها وهو يقول :

«البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة ومعاون على قضاء الاشغال يصل نورها إلى قلب صاحبها فيفعمه غبطة . وكذلك (إني أحذف بسرور هذه الكذلك الزائدة هنا) يلقي شعاعه الكهربائي على من حوله فتنتعش به أرواحهم . وهي جميلة في الكهل كما تجمل في الطفل إلا أنها أبهى وأشد تأثيراً في المرأة تلك التي تسيطر على القلوب ولا تدري» (١) .

... أو تدري . وهذا لا يقلل من جمال البشاشة .

ولو جاز لي تحديد هذا الاسلوب الكتابي لقلت إن له من المزاج العصبي الصفراوي الحرارة التي تكون حيناً حدةً وحيناً نعومة ، ومن الإسلام التنميق والبلاغة ، وهو بالجملة مصري أسمر « نغش » جذاب .



ولا يسوغ لي أن أختم هذا الفصل دون التنويه بأمر آخر اشتهرت به دون غيرها بين المسلمات ، وهو الخطابة . ولكن كيف أتكلم عن أمر أجهله وكيف أحكم على خطيب لم أكن يوماً بين المستمعين إليه ؟ غايه ما أعلم أنها كانت جامعةً لصفات لا بد من توفرها لكل مقدم على ارتقاء المنابر : أولاً وأهمها السيمباثيا (Sympathy) وخفة الروح ، ثم عذوبة الصوت المنطلق من الصدر ، لأن كل صوتٍ ينحدر من الرأس إلى الأنف يكون ذا نغمةٍ شائكة مزعجة فيفقد قوة التأثير . وإن لم يكن الخطيب مؤثراً فلماذا يتكلم ؟ ثم وضوح اللفظ وبلاغة النطق ، وأخيراً الشجاعة الأدبية اللازمة لبدء الرأي بكرامة وسداجة .

(١) «النسائيات» .

كثير من مقالاتها مكتوب بكيفية خطافية وهي كيفية فعالة . غير أنها في خطبها تتبع خطة المحدث البسيط لأنَّ خطبها لم تكن في الواقع إلا محاضرات ، وهذه تشغل الدرجة الواقعة بين الحديث المألوف والخطابة الصرفة . وقد تركت بعض المنظومات لأنها كانت تحبُّ الكلام الموزون ، وكل ما نثرت موزونٌ منسَّق . ولا أعرف في كلِّ ما كتبت نبذة أبعد من هذه التي تبدو فيها مقدرة مزدوجة كتابية وخطابية يختلط بها شيءٌ من الشجن الشعري وكتابة المرأة الغزيرة العواطف الدامية الشعور :

« يصبونه (الماء) فينصب ويرتقونه . فيخفني في الأرض ويضعونه في كلِّ آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بكل ما يراد به من الألوان . تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقلد به إلى الأرض وآنة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً وآونة تحمي عليه براكيها فيخرج ملتباً . وحيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريء ، ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سُكراً فيحلون ويذيقون به الحنظل فيمر . وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بجميل . وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلها . إنه مثلي يا ممي يذهب ضياعاً » (١) !

ما أوجع هذه الكلمة وأوجع المرارة التي أملتها ! لقد فعل الحزن هنا ما يفعله في كل نفس صالحة فكان اليد المنبهة الخصب الجانية الخيرات . إنَّ لفَّ أيام ولواعج عمرٍ انتجت أبحاثاً قليلة ولكنها فريدة من نوعها في الآداب العربية . وسنقف على زبدة هذه الأبحاث في الفصلين المقبلين إذ نعالج الباحثة ناقدة ومصالحة فنجد ثمة أكثر الآراء تعقلاً ورزانة . لو لم يكن للحزن من منفعةٍ سوى انتباه ضحيته إلى ضرورة الإصلاح وعثورها على مواطن الضعف والسقام من بيتها ، ولو لم يكن له من منفعةٍ سوى تمزيق

(١) « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة .

حجب الزهو والغرور عن محيا الرصانة والحكمة - لكفى به قوة تسكب
عليها البركات على كر الدهور !

كلّاً لم تمضِ أتراحك جزافاً ، يا روح العزيزة ، إذ لا يتلاشى شيء
في هذا الوجود العظيم ، ولا ذهبت منك القدرة ضياعاً لأن الحياة والموت
العويتان في يد النظام المطلق نظام التحول الشامل . وما كان قومك بذلك
التحول فيك إلا القوم الرابعين !

النباتة

أليس النقد من تلك الملكات الفطرية المتسلسلة أدوارها في الطفل وفي الرجل على نمط واحد؟ فتكون في دورها الأول نظراً بسيطاً يعقبه انتباه إيجابي أو سلبي، أي الانتباه لوجود شيء أو لعدم وجوده. ثم يجيء دور المقابلة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون. حتى إذا اكتمل فعل التمييز والمقابلة، وحكم النوق بأفضلية أحد الوجهين وأنقصية الآخر، كان ذلك الحكم ما نسميه نقداً.

كان الجمهور بالأمس يتخيل وجود نصوص ثابتة مترفعة عن التحوير هي سلاح الناقد، فرداً كان أو أقلية قادرة. فإذا أثبت الناقد أو نفى احتضنت رأيه الأكثرية بلا تمحيص ولا ارتياب في أنها ماثلة أمام الحقيقة بعينها. ويا لهول روعة تجمد المفكر إزاء ما قاساه الأنام من جراء هذا الاعتقاد الفاسد والاستسلام للدليل، وفي ماضي ما أكثر ما أورث الحاضر من الحفاظ والضغائن! أما الآن فالرأي العام، كالرأي الخاص، لا يتقاد إلا إلى من شاء الانقياد اليهم، حافظاً لنفسه حرية النقض والتأييد والمناقشة. والحقيقة ان عصرنا عصر انتقاد بلا نقدة، لأن النقد أصبح جزءاً مدركاً من شخصية كل فرد، وانحصاره في أفراد دون غيرهم يتنافى الروح النقدية ويتنافى الواقع، إذ أي الناس لا يحب أشياء ويكره أشياء؟

على أن للنقد شرطين اثنين لا بدّ منهما ليكون صائباً مفيداً .

الشرط الأول أن يكون قوة فطرية مكتملة لا جزئية ، والشرط الثاني أن يكون الاطلاع والملاحظة والاختبار قد أوسعته تَهذيباً وتصفية . والشرطان لازمان متماسكان إلا أن الملكة الفطرية أكثر ضرورة لأن وجودها يقبل المزيد والاتساع . وإن لم توجد فجميع المطالعات والأسفار والاختيارات تعمل في محق القليل الذي أفلت من أصابع الطبيعة وهي تقذف إلى الحياة بمن لم تشأ أن تجعله من أهل الذوق .

لو نفينا عن الباحثة كل صفة كتابية وجردناها من جميع نعوت الانشاء لظَلَّت ناقدة في كل كلمة خطّها يراعها . كانت ناقدة بفطرتها التي تُفَقِّها الدرس والألم والاطلاع على مناطق البيئة المصرية مما لم يكن ميسوراً لسواها . لأنها بمركزها الاجتماعي كانت ذات صلة بجميع الطبقات . فيناهي بوجاهة أبيها وزوجها من عشيرات الطبقة العليا إذا بها صديقة الطبقة الوسطى برفيقاتها في المدرسة وبتعاطفها التعليم قبل زواجها . ولما كانت تذهب إلى قصر الباسل في الفيوم كانت تجتمع بنسوة البادية والفلاحات المحسوبات ، بما يأتيه من الزراعة واللقاط والخدمة المنزلية ، إحدى أمتعة الرجل وجزءاً من ثروته . فتحدث تلك النفوس الخشنة بجهلها وتربيتها وعاداتها ، الرقيقة بأنوثتها وإحساسها وأوجاعها ، وتقابل في سرها بينهن وبين الأخريات ذوات الدلال واليسار ، فتجد أن المرأة إن تغيرت منها الأثواب والإشارات فإن وجوه الشقاء في حياتها متشابهة ومواضع الخلل واحدة في جميع الطبقات . فأدركت وجوب الانتقاد والمعالجة ابتداءً بأكثر الأعضاء سقماً ومبعث الصحة والمرض في جسم العمران . يجب أن يبتدأ بتعليم المرأة لأنها الأكثر جهلاً . يجب اصلاحها السريع ليتيسر اصلاح الرجل . يجب أن يباشر بتحرير المرأة كيلا يكون المتغلبون بلبنها عبيداً . يجب أن يُحسّر غشاء الخزعبلات والأوهام عن عينيها ليدرك الناظر فيهما ، من زوج وأخ وولد ، إن معنى الحياة

عظيم. هي المظلومة المنحنية أمام الرجل العسوف ، هي المهضومة الحقوق الساكنة على مضض الهوان ، وترى أيُّ إلهٍ أو شيطان أباح الجور عليها من بدء أيامها إلى منتهائها ؟ منذ بدء أيامها ؟ كلا بل قبل ذلك ! وهالك حجة الباحثة :

« المرأة المصرية مسلوقة الحق ومظلومة في كل أدوار حياتها. نراها يتشاعم منها حتى وهي جنين فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الجباه مقبضة والصدور متقبضة والثغور صامته. ترى القابلة تحملها وهي منكشمة لا تبدي ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب في ولادتها. ترى أقارب النفساء وصديقاتها يكثرن لها الهدايا حتى إذا كان مولودها ذكراً ويقللون منها عدداً وقيمةً إذا كانت بأنثى. نرى كل من نقل الخبر يطمح اليأس من عينيه ولسان حاله يقول ناقل الكفر ليس بكافر. فإذا انقضت ستة أيام كان سابع أيام الصبي عيداً توقد فيه الشموع نهراً وتجلب أنواع الحلوى وتعزف آلات الطرب. أما الصبية فيكفى لها ببعض النقل وبحسب تفضيلاً »^(١).

حق انتقاد تفضيل الصبي على الصبية ليس عندنا نحن الشرقيين فحسب ، بل عند أهل المغرب كذلك ، لا سيما في هذه الأيام بعد أن فقدوا في الحرب ملايين الرجال فصاروا يطلبون الأبناء ليسدوا ما ثلم من صفوفهم وخوفاً على البلاد من حروب مقبلات. غير أن هذا شيء موقوت ، وتشاؤم الناس من الفتاة قديم ، فما هي أسبابه ؟ يقولون بأفضلية الصبي لأنه يحفظ اسم العائلة. لست لأناقش ما إذا كان في وسعه الاحتفاظ بذيالك الإسم بدون معاونة المرأة. ولست لألفت نظر أحدٍ إلى أن هذه مسألة اصطلاحية صرقة ، وإلى أنها كانت موكولة إلى المرأة أيام كان قانون الأمة (Matriarcat) نافذاً عند بعض الشعوب القديمة (وما زال نافذاً في بعض الجهات من أفريقيا الجنوبية) ، وإلى أن صاحبات العروش ما زلن يتمشين عليه ، إذ إن الأنثى

(١) النسائيات .

التي ترث صولجان أبيها تناول أولادها اسم عائلتها دون اسم أبيهم .

اللهم ان أسباب التفضيل عند الأهل كثير . منها أن الفتاة تأخذ نصيبها من ثروة أسرته وتعطيها لرجل غريب ، بعكس الفتى الذي يزيده ثروة أبويه بزواجه وبأرباحه جميعاً . أما المقامرة ، والسيارات ، والمضاربة وجميع أساليب التبذير التي يبتكرها الولد ليلتهم ثروة الوالد الكتيب فلا حساب لها ولا بأس بها ، أليس انه رجل ؟ لقد امتدت يد النساء الآن إلى كثير من أنواع العمل مدفوعة بالحاجة ووجوب إعالة من لا معين لهم وضرورة اشغال الأيام بفكرة جديدة ، ومنهن من أثرين كأعظم المالين وكان نجاحهن حسن العائلة على ذوين . ولكن ما العمل ؟ إنهن نساء ! وربما كان سبب التفضيل الأكبر من تلك الأسباب الغامضة التي تلذّب حياها متبلورات المنطق الثابت . كل أعمال الرجل حسنة ما دام « رجلاً » وكل الذنوب جائرة تغفر له « لأنه رجل » !



ومقابل ذلك كل شيء يحسب على المرأة . تتدرج الناقدة في سرد حياة هذه المخلوقة المسكينة قترى نصيبها من العلم قليلاً وترى الطليات عليها حراماً لأنها « بنت » لا تصلح لغير أعمال المنزل . هذا في الصغر . أما في الشباب « فيحجر علينا حتى في استنشاق الهواء النقي حتى في اختيار لون الثوب الذي نلبسه » (١) .

إن عدم حرية الفتاة في اختيار الثوب الذي تلبسه لا يرجع إلى ازدياد الأبوين بها بل إلى نقص في تربيتهما الأصلية وعدم إدراكهما وجوب تربية الصغار على الاستقلال في الاختيار والاعتماد على النفس . الشرقيون - كعص الشعوب اللاتينية - متأخرون جداً في هذه الطريق التي قطعت منها

(١) النساءيات .

الشعوب الانجلوسكسونية شوطاً بعيداً . إنَّ هذه تتقف الأولاد على التمييز والاختيار فيشئون أحراراً يعرفون ماذا يريدون ولأي سبب يريدونه . فكم من أم انجليزية وأمريكية رأيتهما مع طفل لها أو طفلة تتأعُ لهما في المخازن أثواباً أو أدوات مدرسية أو لعباً يلتهيان بها ، وتخبرهما في الانتخاب ضمن ما شاءت هي من حدود اقتصادية . وما أبهج مرأى الصغير ناظراً إلى تلك الحوائج يقابل بينها مناقشاً نفسه حتى إذا قرَّ رأيه على أحدها سألته أمه سبب اختيارها وأبانت له منها العيوب والحسنات بألفاظ مختصرة وحجة مفحمة وتأدب تام كأنما هي لا تحدث طفلاً هو ابنها ، بل تحدث رجلاً غريباً عنها .

وما أجمل دوائر التيقظ تتسع قليلاً قليلاً في عيني الصغير ! وما أعظم الفرق بين هذه الأم الرشيدة والأم الشرقية الفظة التي رأيتهما البارحة تشد بذراع صغيرها قائلة بصوت أجشّ وعبوسة قبيحة : « امش يا ابن الكلب ! » سيكبر هذا الولد وانقاً من أن أباه كلب ، وأمّه امرأة كلب ، يعني كلبة ، وأن وسطه جحيمٌ أسود لا متسع فيه لغير الضنى والحن ! كيف تستلم تلك اليد الخشنة نفس الطفل الطريفة ، وإذا عاملته على هذه الصورة حين لا ذنب له سوى أن ذكاه المتنبه ونفسه الطلعة وقتت تستعرض بضائع نُشرت في نوافذ الحانوت طالبة التفهم والمعرفة ، فإذا تفعل به ساعة يجني إنمأً ساهياً أو متعمداً ؟ وهل يستطيع هذا أن يحبّ أمه ويحترمها كما يجب ذلك الغريب الصغير أمه الصالحة ويحترمها ؟ كثيراً ما ينسى الأبوان أن الاحترام يؤكّد الاحترام والحبّ يستدعي الحب ، وإن معاملة أبنائهم لهما نتيجة لازمة لتصرفهما معهم . فكما أن لهما شخصية مستقبلية ، وإرادة ترغب في الخبرة ، وميولاً تريد أن تنمو وتصلح ، كذلك ، بل أكثر من ذلك ، للأبناء المستبين رويداً رويداً ليقظة الحياة المنبسطة أمامهم بهولها وجلالها . وأي يد تحسن قيادتهم بين أدغال الحوادث بحكمة وانصاف

وحنان أكثر من تلك التي عيّنتها الطبيعة لتضمهم وتداعبهم وتهذبهم وتواسيهم ؟ وهكذا تتبع الباحثة الفتاة خطوة خطوة في دور التربية قترى في الأم الجاهلة أكبر عثرة في سبيل النجاح وأن البيت يفتأ مفسداً من البنت ما تصلحه المدرسة ، حتى إذا وصلت إلى عمر معين « ذكرت الأم لزوجها ، والفتاة تسمع ، أن البنت قد كبرت وأنه يجب أن تترك الدرس والمدرسة لتتزوج ، وأن فلاناً وفلاناً أرسل والدته وأخته تخطبها »^(١) فإذا كانت الفتاة ذات عقل وشعور صغرت نفسها واغتاضت لجرأة الرجل الذي يهاجم حياتها الهادئة بمجرد استنسابه الزواج منها . غير أن السواد الأعظم يلتفتن لأمر الزواج وما فيه من لامع جديد فيملن المدرسة والتعليم وتنتهي إمكانية التهذيب والأخلاق وهو قوام العائلة !

غريب جداً اننا نتعلم جميع الفنون والأعمال قبل ممارستها إلا فن تهذيب النفوس الصغيرة ! الفتاة التي ترعرعت على جهل وغرور في منزل هذه حاله ، تحت مراقبة أم هذه درجة ادراكها ، إذا صارت ربة بيت واستلمت نفوس الأطفال فكيف تتكفل بحل مشكلة إسعادهم وإعدادهم لحياة ينفعون فيها الغير ويتنفعون ؟ لا ريب في أن هذا هو الأساس الأول لشقاء العائلة ، أساس يقوم عليه سوء التفاهم والمشاجرة المؤدية إلى النفور المحزن بين أعضاء الأسرة الواحدة .



هنا تلمس الباحثة القفل وتفتح باب العائلة على مصراعيه لتجبل بنظرها في كل ما يختفي وراءه . فتبصر الفتاة في ذلك الدور الذي يسبق الخطبة . الخاطب والأهل يبحثون ذاك عما يرغب فيه من ثروة وهؤلاء عما يشدّون من جاه . والفتاة بين هؤلاء الأنانيين المستبدين كالعوبة لا صوت لها في الجماعة .

(١) النسائيات .

يجب أن لا تنسى ان فريقاً كبيراً من البنات لا يهم كلاً منهن من الزواج إلا زخرف القرح والطمع بالاستقلال في منزل تصبح سيده وتصرف في تنسيقه وإدارته كيفما شاءت ، سعيدة بأن لها « ملكة صغيرة » تنفذ فيها إرادتها . ربما كانت فكرة هذه الحرية المتواضعة من أهم المرغبات في الزواج . وقد يكون في هذا الفريق زوجات مخلصات وأمهات صالحات . إلا أن شح السعادة و تزايد الانشقاق في العائلات يبين بأن غير المسرورات من زواجهن كثيرات ومعظمهن عائد شقائقهن إلى عبث الأهل برغائهن ، وحملهن على قبول من رضى به زوجاً بالترغيب ، أو بالتوسل ، أو بالارغام الصريح . وليس هذا التحكُّم من خصائص الشرق وحده بل سمعت من أجنب وأجنبيات مختلفي الجنسيات إن هذه حالهم في بلادهم وقد يكون هنا كذلك العنصر الانجلوسكسوني أكثر احتساباً برضى الأولاد من غيره .

لما كنت أدرس الانجليزية أخذت يوماً أتحدث وأستاذي بهذه المسألة الحيوية فأخبرني أنه لما خطب ، كانت الفتاة التي انتقاها ضئيلة في عيني أمه لأنها ليست « ذكية ولا جميلة ولا متعلمة ولا غنية » فقالت له « لك أن تبحث عن فتاة حائزة لصفات اجتماعية أكثر من هذه » أجاب : « صفتها الوحيدة أنها فتاة محبة وهذا يكفيني . أستطيع أن أبحث عن تفضلها في نظر الغير ولكنها تحبني وأنا أحبها ولا أريد غير ذلك » . فبعد أن قامت تلك الأم بواجبها نحو ضميرها ومطالبها الشخصية قامت بواجبها نحو ولدها فاحترمت عواطفه وأذعنت .

إني بكلامي عن العائلة عندنا واستبداد الأهل لا أعني الجميع على الإطلاق ، بل أعني الأكثرية . لأن النفوس النيرة الكبيرة موجودة في كل مكان لا تقيد بالحدود الجغرافية ولا يسطو عليها مناخ الإقليم . حدثني نابه من أعظم المصريين أنه بعد أن اختطبت ابنته أحد أبناء العائلات الوجبة رأت الفتاة خطيبها وهو داخل فلم يعجبها مع أنه كان جميل الطلعة حسن الهندام ، وحملت

أباها على استرجاع وعده . وبعد مدة وجيزة جاء خاطب آخر بمائل ذلك مقاماً ويقلُّ عنه جمالاً فأرادت أن تراه قبل البت في الأمر فأعجبها لأنَّ « دمه خفيف » وتزوَّجت منه . وهو من أشهر رجال مصر في هذه الأيام .

وقد تكلمت الباحثة عن الزواج خصوصاً في فصل جعلت عنوانه « يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهنَّ » ! ملقبةً الخطأ على الرجل وعلى المرأة ولا سيما على طريقة الزواج نفسها . وحصرت شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما في الأسباب الآتية :

- ١ - جهل أحد الزوجين بالآخر .
 - ٢ - زواج مختلفي الطباع كعالمٍ وجاهلة وبالعكس أو غني وفقيرة ومختلفي الدين والبلد .
 - ٣ - الطمع في الغنى يغير نظر إلى الأخلاق .
 - ٤ - الزواج القسري .
 - ٥ - تأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه في أحكام الزواج والطلاق .
- وهذه الأسباب كلها شعب لأصل واحد وهو عدم الحكمة . « فإذا روعيت شروط الحكمة فقلَّ أن نرى هذا الشقاء المخيم على البيوت المصرية الهادم لمعنى الزوجية . وخير للفتاة والفتى أن يعيشا أعزبين من أن يتزوجا بنالٍ هو البؤس والعذاب » ^(١) .

ثم أخذت بتنفيذ صنوف شقائهما فعددت عيوب المرأة الجاهلة كعدم الثقة بالزوج وتصديق وشايات صويحباتها وجاراتها به ، والغيرة الشديدة على حاضره وماضيه جميعاً ، والتحزُّب لأقاربها وإفادتهم من مال زوجها ما استطاعت في حين أنها تبغض أهله وتسيء معاملتهم ، والإثرة ، والمباراة ، والإسراف ، والبطالة ، والإهتمام بالزينة والزيارات ، وإهمال الأولاد

(١) النسائيات .

للخدم والمربيات ، وتقليد الأجانب في اللباس والحركات بلا ترو ، والثرثرة والتدخل بأمر الرجل . أي شيء لم تذكره ؟ أي شيء لم تنتقده ؟ إنها لم يفتها حتى ولا التلخين ، ولا الضحك ، ولا العبوسة . انتقدت كل ما استطاعت انتقاده في تلك الصفحات القلائل ثم وقفت طويلاً عند سرعة غضب المرأة وتهديدها بالفراق فقالت :

« كل شريكين قد يختلفان اختلافات بسيطة ولكنهما لا يذيعانها ومن أحق بكتمان السر من شريكي الحياة أعني الزوجين . والحازم من لا يجعل للاختلاف الصغير محلاً من اهتمامه بل يزيله بمجرد الفراغ من التكلم فيه . » بقيت لي كلمة عن هؤلاء اللاتي يغضبن ليقبضن ما يبقى لهن من الصداق عند أزواجهن وهي عادة شائعة كثيراً عند بعض الطبقات . أما قبجها فجلي لأن المرأة بذلك تبرهن على أنها تقدر النقود أكثر من الحياة والسعادة وهذا جشع لا يليق إلا بالمارين ومهووسي المال والمرأة يجب أن تكون ملك اللطف ومثال الرقة والزراعة . وبعضهن يتدعرن بالغضب والإحتماء بالأهل ليصالحن الرجل والعادة أن يصالح الرجل زوجه بقطعة حل و ثياب كثيرة فما أسخف هذه العقول . تفدي المرأة راحتها وهناءها وسعادة أولادها بذلك المتاع القاني . »
« والمترل لا بهاء له إلا بالمرأة كما أن قوامه الرجل قترك المرأة بيتها يمسخ ذلك الهناء المرفرف عليه ويسبب حزن الأولاد وانقباضهم كما أنه يتلف وتعبث به أيدي الخدم فيخسر الرجل خسارة مضاعفة » (١) .

وبعد فراغها من وخز المرأة التفتت إلى « الآخر » ، إلى الرجل ، ونصّدت منه المساوىء المرعبة جاعلة الطمع في رأس القائمة ، ثم الاستبداد بمال المرأة بعد الحصول عليه فقالت :

« بعض النساء يهددن بالفراق إذا لم يعطين أزواجهن ما يطلبون ويذكر لهن الزواج إرهاباً فأَي الأمرين تختار المرأة البائسة ؟ » . المرأة مظلومة دائماً .

(١) النسائيات .

إذا كانت فقيرة لا يرغب فيها وإن كانت وارثة يطعم في مالها . والوارثة مظلومة أيضاً فإما أن لا تتزوج لتأمن الطمع والطماعين ، وإما أن تتزوج على غير بصيرة كمعادتنا ^(١) .

ما أكثر مساوئ هذا « الآخر » المخيف عدداً وليس الظلم أقلها . تتبعه الأنانية وعدم مؤاساة المرأة في حزنها ، والزواج من غيرها ، والازدراء بها ، والتكبر عليها والضغط على جميع أنواع حريتها ، وكم أساراه عنها كأنما هي شيء لا قدر له ولا قيمة ... عديدة ، مديدة ذنوبك ، يا إسرائيل ! وأما ما تقتاظ منه الباحثة بوجه خاص فهو عدم امتزاجه بذويه وإفادتهم من معرفته وعلمه ، فهي تحتل الجهل من الغبي الصريح ولكنه يحزنها جهل امرأة العالم وابنته وأخته . وتنسب ذلك إلى الخشونة التي يضع بها الرجل تأثيره الحسن في أسرته . قالت ساخطة :

« لا أحب الأب يتكبر على أهله وأولاده فيظهر لهم بمظهر الجبار العنيف ويظن أن ذلك استجلاب للهيبة وهو لا يعلم بما يشعرون » . وهذا التجبر من جانب الأب يضعف الاخلاق في الطفل ويفسدها إذ يربي فيه الجبن والدل ثم الاستبداد متى كبر ^(٢) .

كانت من أنصار السفور مبدئياً . ومن رأيها أن كل ما تحتاج إليه المرأة ولا تجده بين النساء كالطبيب البارع والأستاذ الماهر الخ ، يجوز أن تستعين به الرجل ، وجاهرت بأنها لو كانت واقفة من كمال المرأة وتهذيب الرجل لما ترددت في إباحة السفور للجميع - كما أنها تبيحه للراقية من النساء . وقد أبدت فكرها في ردّها على خطبة ألقاها زعيم السفورين عبد الحميد أفندي حمدي في نادي حزب الأمة . قالت :

« لا نساء مصر متعودات الحجاب الآن فلو أمرتهن مرة واحدة بحلّعه

(١) و(٢) النسائيات .

وترك البرقع لرأيت ما يجلبه على أنفسهم من الخزي وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغير الفجائي من أسباب البلاء وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين (لا أفهم كيف يكون السفور أو أي شيء آخر شراً على «الدين» - مي). وإذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلاً قليلاً إلى أن يتم الهدم فتبني على أنقاضه أحسن منه ؟ . « ثم أفلني أيها القارئ بالله ماذا تقول امرأة جاهلة أو متعلمة تعليماً ناقصاً لشاب تجتمع به أتباعه في العلوم وهي لا تدرك أهميتها أو تعلم منها قشوراً لا يعتد بها . أم تناضله في السياسة وهي لا تعلم أين انحلترا من جزائر الأرخيل ولا يمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار مثلاً . أم ماذا تفعل اللهم أنها لا تجد شيئاً تقوله له إلا ما قد تستحسنه من هيئته وحسن بزمته وهناك الضلال الكبير . رأيي أن الوقت لم يأن لرفع الحجاب فعملوا المرأة تعليماً حقاً وربوها تربيةً صحيحة وهذبوا النشء وأصلحو أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذباً ثم أتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة »^(١) .

من الناس من لا ينتقد إلا بمرارة وبقصد الإيذاء والإيلام والانقاص من قيمة المنتقد عليه . أما كاتبتنا فتنقد بسردها الحكاية كمن يصف لك حالاً من الأحوال دون تعمد الانتقاد والمرارة تنقلب تحت قلمها ظرفاً فتبتسم حيناً ، وتبكي أحياناً . وتحال قطرات الدم سائلات من يراعها ساعة تذكر شيئاً يوجعها في أعز عواطفها ويلمس من نفسها أرق الأوتار حساً ، كموضوع تعدد الزوجات مثلاً الذي ترى فيه الظلم البحت والاستبداد الأقصى ولا تبرره إلا إذا تعدر عيش الرجل هنيئاً مع زوجته الأولى . هاك صورة الضرتين :

« أرى « القديمة » حزينة « والجديدة » كذلك . فإذا قلت للأولى ماذا يحزنك أجابت يحزنني ذلي وانكسار قلبي وأنا على ما ترين لست أنقص

(١) النساءيات .

عن الجديدة جمالاً ولا أدباً وكنت أبذل جهدي في مرضاة زوجي أما الآن فلا . على أنه لا يزال يستر ضيبي فيقول لي أنت أحب إلي من الأخرى وأنت أول من ملك قلبي وأنت جميلة وأنت أنت الخ . وأنا لم أتزوج عليك لتقصي فيك وإنما كان ذلك مقدوراً وإذا ما سألت الجديدة عن سبب انقباضها قالت يحزنني أن أرى لي شريكة ومنافسة على أن زوجي يحقق لي أنه لا يعبأ بها وأنه لو كان مقتنعاً بها لما تزوج عليها وأنه يريد طلاقها ولكنه يبقها رحمة منه لتربي أولاده فقط . « فزوج الثنتين غير سعيد كما قد يجمل له » . الإكثار من الزواج داء إذا تأصل صعب استئصاله (١) .

في الضرّ ترى جميع أنواع المتاعب للرجل ، وأكبر أسباب الغم والتعاسة للمرأة ، فهو عندها مفرق العائلة وأظلم مشنت لسلامها . قالت « هو اسم فظيع تكاد أنا ملي تقف بالقلم عند كتابته » و « هو اسم فظيع مملوء وحشية وإنانية » . إذا شقي الرجل مع زوجته الأولى له أن يتزوج عليها . في هذا الظرف تسمح بالضر وتحرمه في ما عداه . « أما إذا كان يعد بقاءه (القديمة) معه منعصاً لحياته أو كان كارهاً لها فليطلقها بتاتاً فرما يجد مع غيرها راحة وتجيد هي كذلك مع غيره » . « الطلاق شقاء وحرية والضر شقاء وتقييد . ألا أن حزيناً حراً خير من حزين أسير ! »



أكتب هذا الفصل وبني عاطفتان قويتان . عاطفة الحزن وعاطفة العجز . فالعجز يجعلني قاصرة دون تشخيص هذه الملل الغريبة عني لأنني فتاة مسيحية أرى الضر شيئاً وهمياً لا وجود له في قومي وقد ألغيت بغيابه جميع صنوف الرزايا اللاحقة به . ومهما تفهّمت هذه الأوجاع بقلي النسائي فإنها تظلّ عندي خيالية ليس غير . أما عاطفة الحزن فتأتية من أن العائلة التي وجدت لتكون مستودع السعادة الطاهرة تصير على قولها مستنقع الحشرات والكوارث

(١) النساءيات .

والقنوط . وهل يجدي إصلاح المصلحين نفعاً إزاء ناموس الألم النافذ على جميع الكائنات ؟ لماذا يعذب الأب ابنه والولد أمه ، والغريب الغريب ، والحبیب الحبیب ؟ من أين تهجم جيوش الألم الدقيقة غير المنظورة مصادمة أشرف الميول ، جارحة أصفى النوايا ، ساحقة أخلص القلوب ؟ ما هذا ما نسميه ألماً وما هي الغاية منه ؟ إذا كان كما يزعم الروحانيون نتيجة ذنوب سابقت وإتنا نكفر اليوم عن آثام الأمس وسنكفر في عمر آتٍ عن آثام هذا العمر ، إذا كان ذلك صحيحاً فقد كان يوم بدء أعمار الإنسان فيه تألم هذا مظلوماً لأنه تألم بريئاً . وإذا سلمنا بالمعنى الشريف الذي جعله الروحانيون للألم فقالوا انه النار المطهرة من الفساد والواسطة المثل للتهذيب والارتقاء ، فماذا نفكر إزاء من يتألمون ولا يستفيدون بل يتقهقرون مجدّفين على قوى الطبيعة والألوهية ، بل ماذا نقول في ما يقاسيه الحيوان من آلام جسمية دون أن ينفع به ؟ إن الذي تروعه معاني الألم يتقطع قلبه إزاء أوجاع صغار الحيوان ، فيرى الألم كما هو شيئاً هائلاً وحكماً صارماً تخضع له الموجودات مرغمة مقهورة وتخترع له البشرية مخففات المعاني لتؤاسي بأسها وتنقص من بلواها . يخاف الناس ويرجون ، ويكرهون ويرغبون وظلام الألم مخيم عليهم أبداً ، فيبحثون عن الأصدقاء والمساعدین والمؤيدين والمحين ليأمنوا شر ذلك السواد القاسي . ولكن ، ولكن ! أليس هؤلاء الذين نحبه ونحتفي في قلوبهم من مكاييد الأيام هم الذين يسبون سيال الألم في كؤوسنا صرفاً ويتفتنون في التعذيب كأنما الطبيعة ائتمنتهم على أسرارهم ؟

ما هو الألم ؟ من أين يأتي وما هي الغاية منه ؟ هل يتغلب عليه المصلحون يوماً فتعيش العائلة الجزئية بسلام وتربط العائلة البشرية الكبرى برباط الأمان ؟ أم سنظل أبداً على ما نحن فيه كأنما الباري جلّ وعلا يُشئ وراء سماءاته عالماً جديداً لا يتغذى إلا بعنصر الألم المتجدد مع الثواني في حياة أبناء الأرض ؟

المُصاحَـة

قدّم يوماً أحدُ وزراء روسيا إلى نقولا الأول تقريراً ضمّته اقتراحات
توسّم فيها خيراً للإصلاح والارتقاء فلما انتهى القيصَرُ إلى هذه الكلمة كتب
على هامش التقرير : « الارتقاء ؟ أيُّ ارتقاء ؟ فلتحذف هذه الكلمة من
اللغة » !

للأوامر الهمايونية أن تقضي على اسم الارتقاء في معاجم اللغة والتقارير
الرسمية ، إلا أن المعنى منه يبقى بنجوة عن الالغاء والتكيبيل عاملاً عمله في
الأفكار وفي القلوب . أيقظُ ذوو التيجان والقابضون على أَعنة الأمم أنهم
فائزون في مكافحة القوى الحيوية والقضاء عليها . وما هم فائزون إلا يارتدادهم
خاسرين . حظر القيصَرُ على الوزير استعمال كلمة غاب عنه أن يحبس
مجراها المنذفع في نفوس الرعايا . ولما أن أقبل ذلك التيار الجارف على هاوية
البلشفية اندك يهبط فيها من أعالي الملكية المطلقة مكتسحاً معه رفيع العروش
ومبطاش الصولجة . ولو سبقت اليد المدبرة ووزعته ترعاً وسواقي تُرضعُ
الحدائق وتروي المروج لما ظلّ شلالاً عصياً يُكول مبعثراً على الصخور .
أكان ذلك لروسيا خيراً أم كان شراً ؟ سؤال ما زال الجواب عنه دفيناً
في صدر المستقبل الجدير دون غيره بإصدار الأحكام التاريخية .

لئن كان النقد فطرياً في المرء فالاصلاح كذلك . النقد مزيج من كرهٍ

وَحُبٌّ : كرهٍ لا يُرْغَبُ عنه من موجود ، وحبٌ لا يُرْغَبُ فيه من مفقود . وهذا المفقود المرغوب فيه هو عنصر الإصلاح بعينه . لذلك كان كل نقد اصلاً مضمراً ، وكل ناقد مصلحاً محجوباً . أي شيء يحل بنا لولا الإصلاح ؟ انه ان لم يتيسر لنا بسمة التعليل والتسوية التفت حولنا أكفان الجمود وتاقت جوانبنا إلى أخشاب النعوش ومضاجع البلى . إن جمال كل شيء قائم على الرجاء بالتحسن والنمو والتقدم ليصير في الغد أفضل منه اليوم ، وما مجد الإنسانية إلا في كونها اليوم أوسع قوة منها البارحة وأشمل ادراكاً . لا أمل بلا إصلاح ، وإن لم يكن ثمة أمل فما هو معنى الحياة ؟ كلنا عالم بذلك ، على أن من الناس من يلحق به من صدمات الأيام ووخز الساعات ما يلفته إلى ما لا يحفل به الآخرون ، فيصبح النقد والإصلاح غاية حياته ومحوراً تدور حوله الأفكار منه والأقوال .

تلك هي باحثة البادية . قلت في فصل سابق إنها لا تعطي قارئها جناحين يطير بهما ، ولا تسكب له من رحيق الفكر والخيال ما يعلو به إلى قوة اللمس أو يحدو به ايغالاً في هياكل السر والألغاز ، ولا يهيمها من خفايا النفوس غير ما هو معروف تشترك الجماعات في تقاسم خيراته وشروره . أنها تبقى بين جدران بيتها إلا أنها تحلق في مظاهر الأسى بعين يُظللها خيال الدموع فتكتب منهجة متأثرة كأنما هي تحارب ذرات الشقاء بكل كلمة تخطها . رأت كل ما يتقيد به قومها من عادات دهرية وفروض دينية واصطلاحات اجتماعية ، ورأت من جهة أخرى ما لا بد من إدخاله من تحسين يؤهلهم للسير بكرامة في موكب القرن العشرين ، فنسيت أو تناست تأثيرها لتبسط رأياً معتدلاً يوفق بين القديم الجامد والحديث المتهور . كتبت للجميع لأنها أرادت أن يفهمها الجميع ، ولم تقصد إلا الافادة . يدلك على ذلك

تصريحها هذا : « أريد مما كتبتُ وأكتب للجريدة بعنوان النسائيات تخفيف
ويلات الزواج على قدر الإمكان . ولست أقصد كل رجل على الإطلاق
كما أنني لم أكن أقصد كل امرأة ، وإنما الكلام على من فسدت أخلاقهم
(وهم مع الأسف كثيرون) فسيبوا شقاء النساء وهدموا بناء الزوجية »^(١) .

وقد حاولت تخفيف تلك الويلات والتسوية بين الرجل والمرأة واختطاط
الأسلوب لإصلاح شؤونهما ، بالقلم واللسان معاً . وهذا استهلال خطبتها
الاصلاحية الأولى في نادي حزب الأمة .

« أيها السيدات . أحييكن تحية أخت شاعرة بما تشعرن . يؤلمها ما يؤلم
مجموعكن وتجذل بما به تجذلن » . « ليس اجتماعنا اليوم لمجرد التعارف
أو لعرض مختلف الأزياء ومستحسن الزينات وإنما هو اجتماع جدي أقصد
به تقرير رأيي لتتبعه ولأبحث فيه عن عيوبنا فنصلحها . فقد عمت الشكوى
منا وكثرت كذلك شكوانا من الرجال . كلنا متظلمون وكلنا على حق مما
نقول . بيننا وبين الرجال الآن شبه خصومة وما سببها إلا قلة الوفاق بيننا
وبينهم . هم يعززون هذه الحالة إلى نقص في تربيتنا وعوج في طريقة تعلمنا .
ونحن نعزوها لفسادهم وكبريائهم » . « والأوفق أن نسعى للوفاق جهداً
ونزيل سوء التفاهم والتحزب لنحل بدلهما الثقة والإنصاف ولنبحث أولاً
في نقاط الخلاف » .

إذن فغايتهما صريحة وهي تريد اصلاحاً سريعاً لأن الشقاق بين الجنسين
يؤلمها . قد وجدت الوسيلة ، فلماذا لا يسيرُ عليها الحائرون ؟ إنها كتبت
دوماً كمن يرسل أقواله من على منبر الخطابة ، وعندها استحسن لرأيها
واقدام وشجاعة ملازمة دائماً لجميع المصلحين . كم من الجرأة والثقة
بالذات في هذه الجملة : « هو اجتماع جدي أقصد به تقرير رأيي لتتبعه
ولأبحث فيه عن عيوبنا فنصلحها ! هذه المرأة تشعر بقلبها ، إن لم تقرر
بإدراكها ، ان المتفوق بين ذويه رسول من لدن الله جاء يحمل اليهم رسالة

(١) النسائيات . ومعلوم أن جميع فصول النسائيات نشرت في « الجريدة » قبل أن تصدرها

مجموعة .

إنما هي كل غاية في الحياة .

كل مقالاتها جديرة بالاهتمام ، وكل انتقاد وإصلاح فيها يستحق البحث والنظر ، غير أنني أورد هنا وسائل الإصلاح التي لخصتها في بنود عشرة جعلتها خاتمة خطبتها الأولى في نادي حزب الأمة قالت :

« بقي علينا أن نين الطريق العملي الذي يجب أن نسير عليه . ولو كان لي حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية :

(المادة الأولى) تعليم البنات الدين الصحيح أي تعاليم القرآن والسنة الصحيحة .

(المادة الثانية) تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الأولي إجبارياً في كل الطبقات .

(المادة الثالثة) تعليمهن التدير المنزلي علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الوقتية في الطب .

(المادة الرابعة) تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء في مصر .

(المادة الخامسة) اطلاق الحرية في تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد .

(المادة السادسة) تعويد البنات من صغرهن الصديق والجد في العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل .

(المادة السابعة) اتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم .

(المادة الثامنة) اتباع عادة نساء الأتراك في الإستانة في الحجاب والخروج .

(المادة التاسعة) المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب

من الأشياء والناس بقدر الإمكان .

(المادة العاشرة) - ليست هذه المادة إلا ملحمةٌ مصرية - على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا .

وليتم مذهبها الاصلاحى أضيف إلى البنود السابقة اقتراحاتها العشرة في المؤتمر الإسلامى ، وهذه خلاصتها :

« الإقتراح الأول : ذهاب النساء سواء في المدن والقرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ في المساجد .

الإقتراح الثاني : جعل التعليم الأوّلي إجبارياً وتكثير المجانية على قدر الإمكان في مدارس البنات الموجودة حالياً أو إنشاء غيرها .

الإقتراح الثالث : تلزم جميع المدارس أميرية وأهلية بتعليم الدين الإسلامى .

الإقتراح الرابع : تعيّن في كل مدرسة للبنات سيدة مسلمة عاقلة تراقبن كيلا تهلن واجباتهن الدينية ولا يخرجن عن عادة قومهن .

الإقتراح الخامس : توسيع نطاق مدرسة الممرضات الحاضرة . والأولى إيجاد مدرسة للطب جديدة لتعليم النساء الصناعة تعليمًا كاملاً بدرجة تساوي درجة الأطباء .

الإقتراح السادس : تكثير المستشفيات الخيرية والصيديات للمرضى من الرجال والنساء والأطفال ويكون في كل مركز من مراكز المديریات وقسم من أقسام المدن واحدة على الأقل .

الإقتراح السابع : اتخاذ جميع الوسائل لمنع الحيف الواقع على النساء المسلمات فينبه البوليس بأن يراعى الآداب العمومية في الطرق والاجتماعات وأن يسوق كل مخلّ بالآداب إلى القسم .

الإقترح الثامن : السعي في تقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس بقدر الإستطاعة فإن شقاق النساء واختلاف الأخوة الناشئين من هذه العادة وما يتبع ذلك من الشقاق كل ذلك يدهور الأمة في مهاوي الفناء الأدبي .

الإقترح التاسع : تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم من الصناعات الضرورية لجنسها كالتفصيل والتطريز والقيام على تربية الأطفال والخدمة حتى لا يحتاج الوطنيات إلى غيرهن من الأجنيات .

الإقترح العاشر : منع النساء من المشي في الجنازات ومن الاجتماع للندب واللطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة التي لا وجود لها إلا في مصر .

عفواً يا سيدتي ! إن عندنا مثلها في سوريا ...



هنا أطبق كتاب « النسائيات » شاعرة بأن علامة استفهام كبيرة تتجسم فيّ . أود أن أفهم كيف لم تفكر في وجوب اهتمام النساء بذوي الفاقة ، وضرورة تكوين جمعية خيرية نسائية بين المسلمات ؟ لقد أذهلني دائماً أن أرى في هذا القطر جمعيات خيرية نسائية لجميع الطوائف والنحل إلا للمسلمات ، مع أن المسلمين أغنى عناصر القطر وأرحبها كرمًا وأقربها إلى إتيان المعروف . وبما أنهم العدد الأوفر كان المحتاجون من فقرائهم كثيرين . إن أعمال البر أقرب الأشياء إلى قلب المرأة ولو فقدت هذه جميع دلائل اليقظة الفكرية فإن حنوها يظل حياً جائلاً منسكباً على من يستحقه ويظماً إليه . لذلك لا أفهم إغضاء السيدات المسلمات عن تأليف جمعية برّ منهن^(١) .

(١) مرّ بين كتابة هذه المقالة وطبعها شهوراً تألفت فيها جمعية « المرأة الجديدة » جاعلة أحد أغراضها الاهتمام بالفتيات الفقيرات وتربيتهن وتعليمهن . وقد أقامت في شباط « فبراير » الماضي سوقاً خيرية فنجحت نجاحاً كبيراً . ومع الشناء والشكر الذي تستحقه حضرات القائمات =

وفي ما عدا ذلك . هل من معترض على صلاحية اقتراحات الباحثة ؟
إني أرى شيئين بارزين من إطار هذا المذهب الصغير : أولاً وجوب فتح
أبواب التعليم للمرأة . ثانياً وجوب انطباق كل إصلاح على التعاليم الإسلامية
والعادات القومية . وتعصبها للأمر الثاني جعل أحدهم يقول عنها : « إنه لا ينقصها
سوى العمة لتصير شيخاً » . على أني أتفاعل خيراً بتمسكها بالمصرية والإسلام
ليكون المعتنون أكبر ثقة برأيها ، هي التي لا تقبل من الدخيل إلا ما ليس
عنه غنى .

إننا في زمن مطالبه عديدة واحتياجاته شديدة ، وللمرأة كغيرها مكان
تحت الشمس ، وعليها واجبات لا بد من تميمها نحو نفسها ونحو الآخرين .
فإذا قدّر عليها أن تعول ذويها وهي ليست من أهل الخدمة والخياطة فكيف
تحظر عليها فروع العمل الأخرى ؟ حتى وإن لم تقدم على الدرس عن حاجة بل
عن رغبة بحتة واحتياج إلى المعرفة والنور ، ذاك الإحتياج المذهب المنبثق
من أعماق الكيان ، فبأي عدل يحكم عليها بالبقاء في سجن الجهل ، وبأي
إنصاف تُمنع عن التصرف بما لديها من مشيئة تطلب القوة وذكاء يطلب
الغذاء ؟ كيف يحجر عليها في حريتها الشخصية البريئة ، وهل أوجد الباري
هذه الحرية والعدالة جنباً إلى جنب فكتب على كل منهما : « خصوصية
للرجال » و« حقوق التمتع محفوظة للرجال » ؟

وعلى ذكر التعليم أودّ أن أقحم جملة معترضة وأقول كم من علم

= بهذا العمل الشريف أقول أن هذه الجمعية لا تكفي لسد الفراغ الواسع في عالم البر والحاجة .
إنه لا بد من انشاء جمعية خيرية نسائية « رسمية » تقصدها كل بائسة وبائسة . ان مشهد
النساء البائسات في الشارع يفطر القلوب . والمثريات بين المسلمات كثيرات . وقد وصل
بعضهن إلى درجة من العلم والرفق يدركن عندها وجوب إعالة هؤلاء المسكينات وأطفالهن .
إن أهم وأسمى ما نستطيع أن تأتيه المرأة المصرية في هذا الدور الخطير . دور الإنتقال الإجتماعي .
هو تأليف جمعيات الخير والإهتمام بالنسوة والفتيات الفقيرات . كل إصلاح نسائي لا يكون
هذا أساسه اصلاح ناقص أبتر .

ضروري للبنين والبنات على السواء يهمل بتأناً بينما هم يصرفون الأعوام في تحصيل آخر لا ينتفعون به . نعم إن المرء يستفيد من جميع العلوم إلا أنه بحاجة ماسة إلى بعضها دون الآخر ، وإني لأضربُ مثلاً بواحد منها . كلما طالعتُ في الصحف أخبار المحاكم والأحكام شعرتُ بأن علم القانون والوقوف على ما جاز وما حرّم من الأعمال ، من أهم ما يتلقنه أفراد مجتمع منظم يسير تحت نفوذ تشريع واحد . إن المرء يجهل القانون في كل خطوة يخطوها وفي كل أمر يأتيه . يرتكب المخالفة والجنحة لاهياً ، وقد يفقد ثروة أو يرتكب جناية على غير علم منه ، ويُعاقب شديداً على جرائم لا وجود لها في تقديره ولا هو ينتبه لها إلا حين صدور الأحكام بها . كذلك في أعماله اليومية يحتاج أحياناً إلى إيضاحات صغيرة في ذاتها إلا أن جهله إياها جسيم النتائج . فيلجأ إلى السماسرة والمحامين وكتاب المحامين والموظفين العديدين - وقد يبتني إيضاحاً فلا يلقى إلا تعقيداً . فتتعطل مصالحه وترتبك شؤونه . ولا يقف على ما يريد إلا ساعة تنقضي فرصة الاستفادة وتلافي الشر . وكل ذلك أساسه جهل أصول القانون وجهل أساليب التصرف المعينة في أحوال مخصوصة .

وما يقال في الرجل يزداد عليه في المرأة . لا سيما المرأة المسلمة التي يقوم حجباها جداراً بينها وبين دوائر الأعمال فيتاجر بجهلها الوكيل والقيم والحارس والكاآب ومن نحا نحوهم فيتلاعبون بمصالحها ما شاءت لهم الأطماع تلاعباً . فإذا كانت المدارس تعني الآن بتدريس علم الصحة البدنية لأهميته فأحرى بها أن تدرس مبادئ القانون وهو علم الصحة الاجتماعية . وعلى اللبيب التيقظ رجلاً كان أو امرأة ، أن يدرس ما استطاع منه في وحدته كيلا تصادمه البلية ولات ساعة ندم .



رأيُ الباحثة في الخطبة والزواج معروف تقبله الأكرية المتنورة إن لم يكن عملياً فبدياً . لقد قالت في لائحة خطبتها في نادي حزب الأمة - وفي جميع

مقالاتها عن الزواج - باتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم . وقالت في الاقتراح الثامن من اقتراحتها في المؤتمر الإسلامي بوجوب السعي في تقليل الزوجات . وهما رأيان في منتهى التعقل والصواب . ومما يبشر بالخير أن تعدد الزوجات أصبح نادراً في الطبقة الراقية وقل من هؤلاء من يتزوجون بلا اجتماع وتعارف . وانتباه الآباء والفتيات لهذا الأمر والعمل به إنما هو في مصلحة المرأة المصرية كما أنه في مصلحة القومية المصرية . وإلا فما أسهل أن يتزوج الشاب من امرأة أجنبية تُشربه روح وطنيتها فيتزوجها مبصراً بدلاً من أن يقتن بها المصرية كفيفاً .

وقد ارتأت إتباع عادة نساء الأتراك في الإستانة في الحجاب والخروج . ترى أتعني عاداتهن منذ اثنتي عشرة سنة ، أم عاداتهن المتحركة مع الحياة ، المتغيرة بتغير الأحوال ؟ إن المرأة التركية تحركت كثيراً في هذه الأعوام وقد كتب بعض مراسلي صحف الفرنجة في الإستانة أنها صارت تسير في الشوارع سافرة بزي باريسي كذلك تحركت المرأة المصرية . وكان أن قامت مظاهرات نسائية في إبان الحركة الوطنية في الربيع السابق فلم يعترض الرجال ولم يقابلوا هذه النهضة الجميلة بغير الرضى والإعجاب . ثم كان أن لجنة ملجأ الحرية أعلنت في أواخر نيسان « أبريل » أو أوائل حزيران « يونيو » رغبتها في إقامة شوق خيرية تباع فيها الفتيات المصريات أزهاراً مساعدة للملجأ ، فهبت الصواعق والزلازل في وجه هذا الإعلان واستاء الجمهور استياء شديداً .

وأنا قرأت احتجاجاته بتعجب واحترام : التعجب لأن سخط اليوم لا يتفق مع رضى الأمس مع أن أعمال البر لا تنقص عن أعمال الحماسة الوطنية شرفاً اجتماعياً ، وإن فاقها شرفاً أخلاقياً . أما الاحترام فلأن ذلك الإباء صادر عن طائفة كبيرة من المصريين ، وجميع الآراء القومية جذيرة بالاحترام لأنها تعرب عن نفسيات الأقوام وعقلياتهم . ولكني عدت على رغم مني

أتين أحوال المرأة التركية . فضلاً عن أنها اشتغلت في مصالح التليفون والبريد والتلغراف وغيرها فإن الحركة لم تقتصر على طالبات المعاش . إذ إن السلطنة حرم السلطان محمد الخامس ذهبت إلى إحدى مدارس البنات في الإستانة لتتصدر حفلة ختام الدراسة الثانوية ، ووزعت بيدها الجوائز على المبرزات من الطالبات . ولما زار الامبراطور شارل الهبسبورني الأستانة وذهب لمقابلة الحضرة السلطانية حضرت الحرم السلطاني تلك الزيارة الرسمية في قاعة الشرفيات من وراء الحجاب . قد يقال إن هذا ليس سفوراً بحتاً . صحيح . ولكنه يشبه المقدمة ولم يسبق له مثيل ، على ما أعلم ، في تاريخ سلاطين بني عثمان . وإذا قيل إن هذه إلا أخباراً طيرتها البروق في ذلك الحين ولا يسهل الثبوت من صحتها ، فإذا نقول في السوق الخيرية التي أقامتها في الأستانة جمعية نسائية قبل نشوب الحرب بشهور قليلة وقد برزت فيها سيدات وأوانس البيوتات الإسلامية الكبيرة ، ونشرت صور بعضهن يومئذ مجلة « الابلوستراسيون » الفرنسية ؟

ليس ما أورده هنا إلا سوانح لا قيمة لها في الإصلاح المرجو ، ولا أهمية لما أقوله إزاء ما يرتثيه أساطين المسلمين . ثم هل يجدي الاحتجاج والإقتراح نفعا إزاء التطور والانتقال المحتم من حال إلى حال ؟ وباحثة البادية التي يعرف من قرأ كتاباتها تعصبها للمصرية والإسلام وغيرتها في المحافظة على العادات الشرقية ، تقول بالسفور ليس اليوم ولكن في المستقبل لأن المرأة ليست الآن على استعداد له لا هي ولا الرجل . ولقد سمعت منها ذلك شفاهاً بعد أن قرأته في « النسائيات » وأجده الساعة في مقالتي الفرنسية الذي كتبت تحت تأثير المقابلة الأولى . وفيه ما معناه :

« بعد تناول الشاي تحدثنا في تحرير المرأة والحجاب الذي يحاول بعضهم تمزيقه فقالت :

« سيمزق الحجاب عن قريب ونحن سائرات حتماً نحو السفور ولكن

أَيكون ذلك لخبرنا ؟ أنا من القائلين بتحرير المرأة ولكن علينا أن لا نحضن الحرية دفعة واحدة لنأمن شرها . ليس من الممكن أن نخرج من الظلام الحالك إلى النهار الساطع دون أن تبهنا الأنوار فتتضعض البصائر ولا نعود نرى الأشياء في مكانها كما هي .

« قلت مصممة على إبقاء المناقشة في هذا الموضوع : حقاً إن الأبصار تنهر في الأوقات الأولى فتخطئ النظر والحكم ثم لا تلبث أن تعود إلى مقدرتها الطبيعية . ففي الإندفاع الأول للتحرير النسائي لا بد من بعض الفوضى ثم تعتدل الشؤون وتتبع صراطاً سوياً . »

أجابت بقوة : « كلا ! محجوبات اليوم يجب أن يقين محجوبات دائماً . أما بناتنا الصغيرات ... »

« قلت : نعم . البنات الصغيرات اللاتي ما زلن جالسات على مقاعد الدراسة ويلبسن البرنيطة الإفريقية ... »

قالت : « قلت نعم . أولئك يستطعن متابعة السفور إذا عرفن حدود الحرية وتلقين تربية متينة . ولكن اني لهنّ ذلك وأمهاتهن على ما هنّ عليه ! ... »^(١)

الأمهات ! نتوقف عند سماع هذا الاسم أمام كل صلاح وكل فساد ، ونتطلع إلى حاملاته حيال كل تربية أخلاقية وكل إصلاح اجتماعي . لئن كانت اللجنة تحت أقدام الأمهات فإن الجحيم بين أيديهن ، ولهنّ أن يكنّ لدوينّ ولوطنهنّ نعيماً أو جحيماً ، عظمة أو هواناً . لو أدركت معنى هذه الكلمات التي طال ترديدها كلُّ فتاة ، وبذلت مجهودها في إتيان ما في مقدورها ، لضمنت للحراري تربية عالية ورفعة مقبلة . لو أدركت كلُّ امرأة أن في قبضتها السعادة والشقاء لعرفت قيمة الواجب وكبرت في عيني

(١) « Musulmane d'Aujourd'hui » نشرت في جريدة « البروجريه » .

نفسها ، وفهمت هذا العناء العذب والمجد الخفي الحلو في أن تكون مليكة الأسرة . وإذن لأصبح الشرق شرق العلوّ والقدرة كما أنه شرق الشمس والقمر . عبثاً يقتحم الرجل منطق الذرى . إن لم تكن رفيقته في أفقه المعنوي فإنها تقتل مواهبه بسخاقتها وتعذبه بمطالبها ، وتسيء تربية أولاده بتربيتها السيئة ، وكلما حاول التحليق فوق جبل كانت هي جبلاً معلقاً في عنقه تشدُّ به إلى الهاوية بدلاً من أن تكون بتشجيعها وإعجابها جناحين لنفسه . كلُّ إصلاح وكلُّ نظام جدارٌ لصرح العمران والعائلة ، المرأة أساسه . لترتفع الجدران الباذخة المزخرفة ما شاء ذكاء الباني ومجهوده ارتفاعاً ، ولكن إذا لم تقم على أساسٍ خالٍ من الضعف ، سليم من الشقوق ، تمرُّ الرياح فتداعى وتعصف العاصفة فتنتفضها حجراً حجراً .



والوسيلة الوحيدة للإصلاح المرأة هي تعليمها . لأن العلم كما قالت الباحثة :

« منور العقل على أي حال سواء عمل به أم لم يعمل » . « نحن نعلم أن نقص تربيتنا الأولى وتربية إخواننا لا شك نتيجة جهل أمهاتنا فهل نعرف الداء ولا ندأويه ، وقد قال الحديث الشريف لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ؟ أن المدارس مهما اجتهدت في تثقيف عقول النشء وتهذيبها فإن المنزل له تأثير خاص بالأطفال . وإذا شعر تلميذ أن أمه عالمة أو لها نصيب من علم فإنه يسعى جهده ليربها أنه أهل لحبا وتقديرها إياه فيجهد ليحفظ سلسلة العلم ليكون الصلة شديدة بينه وبينها ، فتعلمنا الحالي ناقص يجب أن يزداد عليه لا أن ينقص منه . أما ما أشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ما ينسبونه خطأ للتعليم وحقهم أن ينسبوه للتربية ؟ » . « تلك التربية في الحقيقة يجب أن تكون من أعمال البيت لا المدرسة . ولما كانت بيوتنا لم تبلغ الدرجة التي تؤهلها لإحسان تربية الأطفال فقد وجب علينا أن نضاعف مجهوداتنا لإصلاح

شأن أنفسنا ثم إصلاح النشء . ولا يتم ذلك في لحظة كما قد يتوهم ^(١) .
 كلا لا يتم ذلك في لحظة ، لأن التربية كالعلم تكتسب شيئاً فشيئاً وتظل
 مكتسبة طول الحياة . والعلم هو العلاقة الوحيدة بين الإنسان وبين الأشياء والسلك
 السبائثاوي الجامع بين الفكر الفردي والفكر الكوني . هو اليد القادرة الحاذقة
 التي تحسر اللثام عن أسرار الحياة ، وبه وحده يتبهر المرء لقيمه كفردي
 وكإنسان . لا ذل إلا في الجهل ولا رفعة بدون معرفة . إنما هلاك النوع البشري
 في سد أبواب الإدراك وحذف إمكانية التعلم والتعليم . ولكن ما زال الانسان
 متاولاً من بحار المعرفة والنور فهو سائر إلى الأمام مهما ألبست عليه السبل .

تقول الباحثة إن التربية من خصائص البيت لا المدرسة وفي فرنسا اليوم
 مشروع جديد لتزع الولد من حضن العائلة وهو في السنة السابعة من عمره
 ليتلقى تربية اخلاقية . أليس هذا المشروع ناتجاً عن ملاحظة عدم كفاءة
 الأمهات في التربية المطلوبة ؟ على أن هناك تربية أخرى هي تربية الذات .
 وقد ذكرتها المصلحة تلميحات حيث قالت : « فقد وجب علينا أن نضاعف
 مجهوداتنا لإصلاح شأن أنفسنا ثم إصلاح النشء » .

إن الذين يُسعدون بتربية متينة في الصغر قليلون في الشرق ، ولعلمهم
 ليسوا بالكثير في الغرب ، ولكن يكفي أن يكون المرء حساساً راغباً في
 الرقي ليبدأ إصلاح نفسه . هو يستطيع ذلك في كل أدوار الحياة وفي أي
 عمل من الأعمال . ولا يلبث الأمر المستهجن في بادئ الأمر أن يتقلب
 لذة كبيرة وقوة نامية . وربما كان أكثر الأفراد تأثيراً في المجتمع أولئك
 العاكفون على تربية ذواتهم ، وهؤلاء يستفيدون من الكتب فائدة مزدوجة .

من اعتقادات الناس عامة أن العلم شيء والأخلاق شيء آخر ، وقد يكون
 هذا ظاهراً في أحوال كثيرة إلا أنه لا غر عند من يتعاطون إصلاح نفوسهم .

(١) النسائيات .

عندهم يمتزج العلم بالاخلاق وتوحد المعرفة والتربية فتصير قوة رفيعة .
وليس أقرب من العالم إلى الخلق السامي لأن العلم يرينا عظمة الإنسان وجلال
الوجود وقدره الألوهية الشاملة ، فيصبح العالم محباً ويتوق إلى الصلاح .
إذاً لا شيء يحث على الصلاح والرفعة الاخلاقية كالحب العميق الأكيد .

ألا فلندكرن ذلك جميعاً ! وأنتم أيها الجالسون على مقاعد المدارس
فتياناً وفتيات ، المطلون من وراء السطور على غرائب الحياة وخفاياها
وممكاتها ، أنتم الأمل الذي لم يذو بعد ، والزهرة النضرة التي لم تفتحها
السموم ، لو ذكرتم إننا في عصر عظيم لكتم شيوخ حكمة في شبابكم !
إننا في عصر لا مثيل له في التاريخ ، فلا يغفر اليوم للفرد أن يكون ضعيفاً
ضئيلاً لأن الأحوال تطلب الطبع الكبير والإرادة القوية ورجال الجِد والعمل .
فإن لم يعد في نصوص الآباء ما يُرضي مطالب الأبناء فما الواجب إلا أكثر
خطورة على الذرية الحاضرة .

قد تغلط هذه الذرية في تأويل معاني الارتقاء ولكن عليها أن تتجنب
الخطأ بدرس أغلاط من كان لها سابقاً . وقد تلقى فشلاً مثلما لاقى السلف
ولكنها ستجعل اهتمامها مملوءاً بثقة في الفوز والغلبة . وستجهد على الأقل
في فتح طريق الارتقاء للدراري المقبلات . وأيُّ فخر أعظم من فخر من
يهيئ السبيل ؟ أليست قيمة الباحثة في أنها حفرت خط الإصلاح بدموع
الإخلاص وإخلاص الدموع ؟

قاسم أمين وأبحاثه الباردة المقابلة بينهما

« فباحثة البادية بين النساء المصريات بل المسلمات بل الشرقيات عموماً لا يقل فضلها في الضرب على مساوىء الأسرة عندنا والحض على وجوب تعليم المرأة لتحرير عقلها وتقويم أخلاقها بالعلم الصحيح عن فضل قاسم أمين في وجوب تحريرها . وإن كانت لم تطلب لها هذا التحرير إلى الغاية القصوى مثله . لأنها لم تطلب إلغاء الحجاب بالكلية . وهو رأي في نظر البعض وجيه » .

الدكتور شبلي شميل^(١)

« نحن لا نكتب طمعاً في أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس ... وإنما نكتب لأهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل فهي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها أن تحل مسألة المرأة المكان الذي تستحقه من العناية والبحث » .

قاسم أمين^(٢)

(١) أنظر باب التقاريف في « السائيات » .

(٢) المرأة الجديدة .

«حبذا لو تصفح هذا الكتاب النفيس (تحرير المرأة) كل من يغار على وطنه وأمه وساعد مؤلفه في بث آرائه بين الجمهور» .

المقتطف^(١)

للحياة في أبنائها مآرب . تعطي بعضهم نفساً يكهرها الفكر والعاطفة وتلقي في أعماقها ودعة النبوغ فيصير بها صاحبها كأنما هو النقطة المركزية التي تتصل بها أسلاك جميع الشعور والخبرات والفكرات والأعمال . ما طغى ظالم في الأرض إلا اهترت منه الجوانح حمية وحنقاً . ولا استبدت جماعة بجماعة أو جنسٌ بجنسٍ إلا انطلق صوته يدمدم كالعواصف لأنه صوت انفجرت فيه أصوات من يتوجعون ولا يدرون كيف يتظلمون . ولا ضربت العلل الاجتماعية في بيئة عثواً إلا وحمل مشراط الجراح ولقائف المؤاسي وقام يوضع يوماً ويضمّد يوماً . تنزل به وبجاره نكبة واحدة في آنٍ واحد فيئن الجراح كفرد بشري ، ويصرخ هو وفي صراخه عويل جميع الذين قضاوا وكانوا قبل الموت فريسة اليأس والهوان . وقد تكثر المحن على هذا «السعيد العيس» لأنه كما أن البلمس الشافي لا تجود به الشجرة العطرية إلا بعد أن تقشر ثوبها ويتجرّح صدرها فتجول حول كلومها اليد الشديدة متلمسة السائل الزكي - ، كذلك لا تخرج المناادة بالإصلاح القومي والتفويض العمراني إلا من أعماق نفسٍ شققها نصال الرزايا وجالت يد الألم تجس فيها آثار الجراح بلا شفقة .

تشيع الأمهات مناولات بناتهن قبس الحياة المنير ويطلّ الهاتف العتيد ينتقل محجوباً بين الأجنحة والمواليد من أهل الدار ونزيلها ، والخمول الدهري مخيمٌ على الجماعة إلى أن يجيء وقت اليقظة . إذ ذاك يبرز هائلاً في الناس فيجفلون . فيلقاه بعضهم ساخطاً محتقراً ، وغيرهم ناقداً متعنتاً ، ويصفي آخرون بمسامع النفس والرغبة ، وبدهشة الحب والإعجاب . وسواء

(١) في تقرّبط كتاب «تحرير المرأة» .

صمّت آذانهم جميعاً أم كانوا من المنصتين فإن صلى الصوت يظل متردداً حول الأفكار والعادات حتى يندمج فيها ، فلا يلبث أن يصير الرأي واقعاً والاقترح إصلاً . لماذا ينجي هذا الصوت الفعّال من أفراد دون أفراد - مع أن الهاتفين كثير - وفي زمن دون آخر ؟ ذلك سرٌّ من أسرار الحياة . وللحياة في الأمكنة والأزمنة والأفراد مآرب .

لم يكن قاسم أمين مصري الأصل وإن كان مصري المنبت والبيئة ، وتام التمصر وطنية وإخلاصاً . لكن الحياة اختارته ليقول ما لم يقله أحدٌ في مصر الحديثة قبله ، وليرك في النشء أثراً جليلاً لم يكن لغيره . لقد قرأت كتبه بعد « نسايات » الباحثة في عام واحد (١٩١٤) فبهني أن يمتزج ذكراهما في نفسي ، حتى أتي لا أفكر في الواحد إلا تناسق اسم الآخر ومذهبه في خاطري . وإني لأحسب من واجب الإقرار بالجمل أن أكرّس له سطوراً في ختام هذا البحث ، لأنه عمل لغاية سعت إليها الباحثة بعده ، وإن كان عمل كل منهما مدفوعاً بفطرته الخاصة ، سائراً نحو الكعبة المشتركة في طريقين يتحاذيان ويتباعدان على طول المسافة . لقد نفتِ الكاتبة عن نفسها اتباع مذهب قاسم ، والتشيع له ، بقولها في ردّها على قصيلها شوقي بك :

« فعلام أكثرت الملا	مة وانضمت لمثلي
وسقيني من مرّ قـ	لك مثل نفع الحنظل
ونسيتي حيناً لمـ	هب قاسم وأبي علي
تعنين ويلك انـني	امارة بتبذل »

وهو إنكار يدل أيضاً على أنها لم تنصفه - ولا أجراً أن أقول أنها لم تفهمه . وكيف أجراً على ذلك وأنا أعتقد على رغم مني بأن تأثيره فيها كان عظيماً ، وإنها لم تتناول القلم بشجاعة إلا لأن قلمه أوحى إليها مهيتاً لها في النفوس سيلاً وواضعاً في الأفكار قابلية واستعداداً . إنها لمست مثله نقطاً معينة وارتأت

إصلاحها تقريباً على الوجه الذي يطلبه . وهل يمكن أن لا تتفعل امرأة راقية
بكلمات هي الأولى من نوعها ، ممن لم يرد للمرأة وللأمة إلا خيراً ؟ لذلك
أعود مجاهرة بإعتقادي بأنها ابنته بالفكر والجرأة وتلميذته في المناداة بإصلاح
شؤون النساء . ولا ينفي ذلك ما بينهما من خلاف زهيد . لأن الأستاذ
والتلميذ وإن اتحدت كلمتهما ، فإن كلاً منهما يظل جارياً وراء طبيعته
يظهرها وينميا . وأبين شاهد على ذلك نجده بين ذروتي الفكر الإغريقي :
أفلاطون وأرسطو . فإن كان أفلاطون زعيم الفلسفة الإيديالستية الكمالية
الذي لا يبارى فإن التلميذ أرسطو انفصل عن استاذة حتى صار اسمه مرادفاً
لإسم الفلسفة العلمية العملية .



هي تكتب كما تتكلم بفطرتها البسيطة ، وهو كذلك يكتب كما يتكلم
يفطرنه البسيطة . إلا أن فطرتها هي نسائية فتتقد وتنتك وتأنم وتشفق ،
وترتقي منبراً خيالياً تمخطب بالإصلاح ثم تضحك وتبكي ، وتأتي بجميع الأقوال
والحركات التي تجعل المرأة محبوبة كالطفل ، بليغة كالشاعر ، خلاصة
كالسحار . أما هو ... فقلبٌ تثقله العواطف الطروية وفكرٌ شغف بالعدل
والإنصاف والحقيقة . يحب الخير والصالح كما أنه يحب اللفات الحلوة
والكلمات اللطيفة . في ثنايا روحه شاعرٌ ينشد وينوح ساعة يقول :

« يشعر العاشق بلذة ساحرة إذا كان محبوباً وإذا كان غير محبوب
فيجد في ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر » . « أكثر الناس لا يفهمون من
الحب إلا أنه أكلة لذيدة ، إذا حضرت أكلوها هنيئاً وإذا غابت استعاضوها
بغيرها . والحقيقة أنه إحساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة
إلى الاختلاط بنفس أخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج الليل إلى الشمس
والغريق إلى الهواء . نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردتها القرب بل
يزيدها اشتعلاً . ومرض يقاسي فيه العاشق عذاباً يظهر باحتقان في مخه وخفقان

في قلبه واضطراب في أعصابه واختلال في نظام حياته يظهر على الأخص في الأكل وفي النوم وفي الشغل ويجعله غير صالح لشيء سوى أنه يقضي أوقاته شاخصاً إلى صورة محبوبته مستغرقاً في عبادتها ذاكراً لأوصافها وحرركاتها وإشارات وكلماتها . نظرة في عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل أنه ماشٍ في طريق مغروس بالورد أو راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية فوق قلوب قريب السماء . وفي هذه اللحظة يكون سعيداً أسعد من أكبر ملوك الأرض فإذا انقضت عاد إلى ما كان فيه من العذاب والألم^(١) .

في هذا المزاج الذي جمع بين الذكاء الفطري والمعرفة المكتسبة والخبرة الواسعة ، بين جذّ رجل القانون ودقة الأديب الطروب يتكوّن الاحتياج الشديد إلى الإصلاح . لأننا إذا أردنا إصلاحاً في التعليم مثلاً فلا نتظره من لا يحسنون القراءة ، وإذا أردنا تعديل القانون وتنقية الأحكام فلا نطلبه من مستبدّ قانونه أنانيته . وإذا شئنا تصفية الذوق وتلطيف الشعور فلا نلجأ إلى الطبايع الخشنة والشعائر الضخمة بل نأمل في الفكر المصقول والعقل الراجح والنفس المتقدمة عواطف ، لتسوق بالناس إلى حبّ التحسن والرفعة المعنوية . ورقيق القلب نافذ الفكر يتعلّب بمعاشرة من لا يشبهه ، ولا يميل إلّا إلى من تفاهم معه ، فينتخب أصدقاءه انتخاباً لا يجعله متساهلاً فيه احتياجه المؤلم إلى خلٍّ وفيّ اقرأ كيف يصور قاسم الصديقيين :

« تأمل في بسامرة صديقين تجد أنها كثر سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسري عقلهما من موضوع إلى موضوع وينتقل من الجزئيات إلى الكليات ويمر على الآمال والآلام والقيح والحسن والناقص والكمال . كلّ عمل أو فكر أو حادث أو إختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً ويفيد نفسيهما لذة جديدة . كلّ مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة

(١) « كلمات » قاسم أمين .

تتعرض منه على نفس الآخر فيكسبه لذة جديدة ويزيد في رابطة الإلفة بينهما عقدة جديدة»^(١).

فإذا كان هذا ما يطلبه من صديقه فإذا تراه يطلب من تلك التي هي زوجته ، وقد قيل أن العاقل ينتخب لنفسه امرأة جامعة لكل الصفات التي يريدتها في الصديق ؟ ماذا يطلب من المخلوقة التي يفعل الرجل مرغماً بتأثيرها في كل أدواره ، وفي كل خطوة يخطوها سواء شاء أم لم يشأ ، يفعل بتأثيرها غريبة وقريبة ، عابرة في سبيله أو شريكة له في حياته ؟ ماذا يطلب ، وهل عنده ما هو طالب بحق ؟ هو يجب عن هذا السؤال :

« وكل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمرّ به بدون أن يشعر حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط نفساهما ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيها يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك ، إذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه وأخته أو زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبين علم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فإننا نشفق عليهن ونحن إليهن ونعذرهن . ولكن لا تكمل محبتنا لهن لأن الحب التام هو ذلك التوافق وهو معدوم »^(٢).

هو يعرف المرأة لأنه يعرف الرجل ، ويعرفهما معاً لأنه يعرف الطبيعة البشرية . ترى من يستطيع أن يكتب كلمة كهذه إن لم يكن قد خبر أحوال الناس ، ونقدتهم ثمن كل حرف من حروفها نقطة من أثمان دماء قلبه : « كلما قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها مني صديق أسفت على خسارته وعددته عدواً جديداً »^(٣) . فلا عجب من أن هذا الذي ينفذ بنظره إلى أقاصي الوجدان طائفاً بين الغاز المليل والتفور يتمكن من لمس تفتت المرائر وإحصاء نبضات القلوب . وأي حدى متيقظ مصيب في هذا البيان : « يوجد

(١) (٢) تحرير المرأة .

(٣) كلمات قاسم أمين .

أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الإتيان المعهود» (١) .

وإذا حاولت إجمال شخصيته ووضع عنوان لما وجدت أفضل من سطره الآتية :

« يظهر لي أن الارتقاء في الإنسان تابع على الخصوص لجهازه العصبي فأكثر الناس استعداداً للرقى هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة أولئك هم السعداء النساء الذين يتمتعون ويتألون . أولئك هم السابقون في ميدان الحياة ، تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فيما بينهم بمصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو ولياً طاهراً أو فيلسوفاً حكيماً أو نبياً كريماً » (٢) .

أو قاسماً أميناً ...

لأنني أظن على ما أرى من كتاباته وصورته الموضوعية في صدر « كلمات » ، انه إن لم يكن مزاجه عصياً بحثاً ففيه شيء كثير من المزاج العصبي .

كل هذه العناصر النفسية تجمعت فكان أغلبها عنصر القضاء . هو يلاحظ الأشياء ويراقب الحوادث مدققاً محصياً ويحكم بفطرته لها أو عليها ، وجاءت ممارسة القانون فزادت تلك الملكة ظهوراً . هو قاضٍ في جميع كتاباته يجلس على منصة العدل غير ملتفت كالخطيب ، إلى أنه أعلى مكاناً من الجالسين وأنه يجب أن يرفع صوته ليرسم السامعون . بل يجلس جلوساً طبعياً لأن تلك المنصة مكانه ، ويتكلم بلهجة بسيطة . يرى الأشياء حوله فيدونها

(١) و(٢) كلمات قاسم أمين .

ويقول : « أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس »^(١) . ويسمع الأقوال فيسجلها ، وهو الخير بما فيها من رسم نفسية جمهور كبير من الناس ، وبما تقبده على قائلها من ونى فكري واستسلام ذليل : « ستل ح . بك : - ما رأيك في كتاب تحرير المرأة ؟ فأجاب رديء ! ! - هل قرأته ؟ - لا - أما يجب أن تطلع عليه قبل أن تحكم بردائه ؟ - ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيي »^(٢) .

وإذا اهتم بموضوع ما أجرى فيه تحقيقاً يتناول جميع فروع العمرانية والسيكولوجية والعلمية والوراثية والعائلية والوسطية ، فيجاهر بما يراه حقاً وقد لا يفهم الآخرون ، ولا يخشى لوماً بتسمية العيوب والأمراض بأسمائها . يجاهر غير متبته للصواعق المنقضة عليه ممن لا يحسنون إلا مضغ كلمات تلقونها يوماً فتجمدت معانيها في أفكارهم وفاخروا باحتكار الحقيقة . إنه يبصر اللغائف البالية الفاسدة على قروح قديمة فيمد إليها يده الجرئة ، وبينما العليل يغلظ القول محتجاً باسم الدين والأمة والشرف والعائلة يتزع هو تلك الأربطة هادئ الجأش ، ويحلل الجرائم الخبيثة الراكدة عليها فيحصيها واحداً فواحداً . إن نظرة المحب تلمع في عين هذا الآسي . ولا يروعه ضجيج الساخطين ، بل يصمت عالماً بأن التمرد أول أدوار الشفاء وإذا تكلم قال بسذاجة :

« نحن نعلم أن رجلاً يعيش في عالم الخيال يكتب في مكتبه على ورقة ان ليس على النساء إلا أن يقرن في بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال . نفهم ذلك على الورق لأن الورق يحتمل كل شيء »^(٣) .

وكما أن الطبيب منه ودود كذلك القاضي مفكر . هذا يصني إلى أقوال الشهود ويجمع حيايات حكمه في حين أن ذاك يغوص في نفس المتهم ويقلب

(١) (٢) كلمات قاسم أمين .

(٣) المرأة الجديدة .

صفحات حياته حتى يصل إلى كلمة الاستهلال ، حتى يصل إلى أمة . نعم أمه كيف كانت وكيف ربّت هذا المسكين ، وعلى أي وجه تربت هي قبل أن تلتقي بالذي صار فيما بعد أباً له ؟ ويتسلسل بحثه إلى نساء أخريات ، وإلى جميع النساء ، فيرى حالتهم كما هي ، ويعنر الذي يناقضه في الرأي لأنه لم يرَ ما رأى هو . فلا يجد ذاك صعوبة في أن يحكم على المرأة بالانزواء في المنزل . وإنما :

« يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحلل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع . فإنه إذا أراد مثلاً أن يحصل لنفسه رأياً في ما هي حقوق النساء التي نحن بصدددها يجب عليه أولاً أن يسوق نظره إلى الوقائع التي تمر أمامه . أعني أن يطبق نظريته على الواقع ويتصورها في ذهنة منفذة ومعمولاً بها في قرية ، ثم في مدينة ثم في إقليم ، وتمثل أمامه النساء في جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن فيراهن بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل . ويراهن في البيت وفي المدرسة وفي الغيط وفي الدكان وفي الأماكن الصناعية . ويقف على سلوكهن مع أزواجهن وأولادهن والأجانب . ثم يعرف البلاد التي للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا في بلادهن وكيف أنهن يستعملن حقوقهن والنتائج التي تربت على هذا الاستعمال . ويقف على حالة المرأة في الأزمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها . » فإذا توفر ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم في المسألة حكماً قاطعاً . لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية فلا تكون نتائجها إلا تقريبية . لذلك تراه دائماً على طريق البحث . لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل موقت . ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل^(١) .

لا يستطيع المرء أن يكون « قاضياً » عادلاً أكثر مما يظهره قاسم أمين في هذه الفقرة . وانك لتجد هذه التزاهة والأمانة والانصاف في كل ما كتب

(١) المرأة الجديدة .

لذلك هو يخفي العواطف وينسأها ما استطاع لأنها ، كما يقولون ، تحول بين الفكر والعدل . ويظل متكلماً بعقله ، منادياً بالهدوء والرزاة والسير على القواعد العلمية والانتفاع بالمشاهدات الاجتماعية ، ووجوب ضبط الانفعالات على الدوام . وعلى رغم ذلك فإن نفسه لا يفتر أبداً حتى إذا وصل إلى فكرة لمست من قلبه مكاناً حساساً أرسل كلمات تشبه في مؤاساتها لمسة التدليل والتحبب على جبهة رضيع عزيز :

« أليس من الغريب أن لا يوجد رجل ميتا يثق بإمرأة أبداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن تتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ أليق أن لا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وأن نسيء الظن بهن إلى هذا الحد ؟ » (١) .

وفي وسط كل هذه الأبحاث الجديدة ، الخالي معظمها من التأثير والشعور ، يشعر القارئ بأن قلب الرجل ليس بعيداً . أن قاسماً أحب المرأة حباً جماً . وقد خطأ لها رسماً يشرّفها في هذه الألفاظ الوجيزة : « كلما أردت أن أنجّل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » (٢) .

« لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحدق في العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الدمة وعظم الأمانة والإخلاص في الولاء ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التي ترجع عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية » (٣) .

هذا هو مثله النسائي الأعلى ، وبهذا المثل القاطن جوارحه يسير في سبيل الحياة مراقباً المرأة المصرية في خبرته القانونية ، وفي العائلة والاجتماع

(١) د (٢) و (٣) تحرير المرأة .

والأمة جميعاً . فإذا يجد ؟ يجد ما يدفعه إلى كتابة كل ما كتب في سبيل إصلاحها يجد ما يجعله يقول في التمهيد لكتاب « تحرير المرأة » .

« أكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة وأخذت بمجامع خواطري . ولا أريد أن أذكر شيئاً منها لعلمي أنها ما تركت ذهنًا حتى طافت به ولا خاطراً حتى وردت عليه . فإن مثار هذه الحوادث جميعها شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضعها ورفيعها » .

ويرى يوماً فتاة صغيرة يعجبه منها الذكاء والجمال ، فيشير على والدها بتعليمها ويحجب هذا بأنها تتعلم إدارة المنزل ، وهذا يكفي . فيشفق قاسم على هذا الصلف والجهل وينطلق مفسراً .

« يعني هذا الأب العنيد بإدارة المنزل أن بنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما أشبه ذلك من المعارف التي لا أنكر أنها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكني أقول ولا أخشى تكبراً أنه مخطئ في توهمه أن المرأة التي لا يكون لها من البضاعة إلا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها إلى إدارة منزلها . ففي رأيي أن المرأة لا يمكن أن تدبر منزلها إلا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبية » .
« والحقيقة أن إدارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج إلى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الإيراد والمصروف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة . وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفلتون لحظة من مراقبتها ، وبغير هذا يستحيل أن يؤديوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها أن تجعل بيتها محبوباً إلى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته إذا أوى إليه . فتحلو له الإقامة فيه ويلبّد له المطعم والمشرب والنام فلا يطلب المقرن ليمضي أوقاته عند الجيران أو في المحلات العمومية . وعليها - وهو أول الواجبات وأهمها - تربية الأولاد جسماً وعقلاً وأدباً » . ومن المعلوم أن الطفل لا يعيش

من طفولته إلى سن التمييز إلا بين النساء . « والأم الجاهلة ليس في استطاعتها أن تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لأنها لا تعرفها . » قد صار من المقرر عندنا أن الأمهات لا يفلحن في تربية الأولاد حتى صار من المثل في الحطة ورداءة السيرة أن يقال فلان تربية امرأة ^(١) .

بل هو يذهب إلى أبعد من أن يحصر وظيفة الزوجة في إدارة المنزل وتربية الأطفال . هو يريد زوجة تقاسمه أفراحه وآلامه وكلامه وسكوته . يريد منها أختاً لروحه فيشكو ويقول أن الرجل أحياناً - ولست أدري هل كل رجل كذلك :

« يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالإشارة . يسكت في أوقات ويتكلم في أخرى ويضحك في غيرها . » له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس . وفي كل فكرة تتولد في ذهنه وإحساس يؤثر على أعصابه يود أن يجد بجانبه إنساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه . « فإذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها ، ولا يلبث أن يرى نفسه في عالم وامرأته في عالم آخر . ومن ثم تبتدىء عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالاً منها . عيشة يرى كل منهما فيها أن صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة . » والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير أبيض أو أسود . أما قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارته ذمته ورقة إحساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده في الوجود وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به إلى أن يكون محترماً محبوباً ممدوحاً في أمته - فهذا لا يصل إلى عقلها شيء منه . وأن وصل فلا يؤثر على منزلته في نفسها . وعلى هذا أول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن أنها تحبه ؟ » « أبغض الرجال عندها من يقضي أوقاته في الإشتغال

(١) تحرير المرأة .

في مكتبه . كلما رآته جالساً منحني الظهر مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي إلا بتراع جديد ولا يدري الزوج المسكين ماذا يصنع إذا أراد الجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . « ومن البديهي أن الرجل الذي يكون هذا حاله ينتهي بفقد كل استعداد للعمل . لأن الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه » (١) .

هذه حالة المرأة فكيف يصلحها ويجعلها نافعة لنفسها ولغيرها؟ ما الذي جعل الرجل أفضل اليوم منه البارحة ؟ وعلى أي شيء تنتصب أركان العمران ؟ أمر أصبح شغله الشاغل فحمل قلمه ونظر اليه كمن ينظر إلى الأمل الوحيد في الدنيا وجرى به على القرطاس المطيع ، ذلك القلم الذي قال فيه خليل مطران :

يدك القبيح ويني المليح رجوعاً إلى سنة الراسم
يشعشع نوراً إذا ما انبرى يسيل بماء الدجى الفاحم



باحثة البادية تصلح كامراً ، وقيل إن المرأة أكثر تشبهاً بالماضي . وقاسم أمين يصلح كرجل - أي يرسل نظره أبداً إلى الأمام . هي تسير بتحفظ بين تشعب الأفكار الجديدة والآراء المستحدثة ، وكلما خطت خطوة التفتت إلى الوراء لتثبت من أنها تابعة السبيل الذي يربط الأمس بالغد . وكلما جاءت بتبديل في النصوص الاصطلاحية حاولت سبكه في قالب الاعتدال مع مراعاة العادات المألوفة ما أمكن . هي كثيرة التحنن في إصلاحها ، عملية متواضعة في مطالبها ، لا تبتعد قرأً واحداً عن حدود بيتها وإن حامت

(١) المرأة الجديدة .

فوقها بما أوتيت من شجاعة وذكاء . إلا أنك حينما تسمعها صارخةً كثيراً ما تظن أنها تفعل لتؤكد لك أنها غير خائفة ، ولك أن تقدر كذلك أنها تصرخ لتسمع صوتاً إنسياً - وإن كان صوتها - يبعد عنها الرعب والوجل في وحدتها الفكرية . أما قاسم فلا يصرخ ولا يخاف ولا يرتعش . في فكره مقدار الكمال الكافي لاختطاط النظريات ، وفي أصالة رأيه وحزمه من الجدارة ما يحول النظريات إلى ما يطابق الواقع ، بل هي الواقع بعينه . وله جناحان يدفعان به إلى نقطة ادراكية يشرف منها على الماضي والحاضر والمستقبل وعلى جميع اليناث والأمم والتواريخ . فيضع هناك كرسي القضاء - كرسيه - ويجلس متأملاً مقابلاً بين شعب وشعب وعصر وعصر ، باحثاً في كل آن وزمان عن تلك السعادة الحلال المتمثلة له في صورة امرأة « حائرة لجمال المرأة وعقل الرجل » . وبين زرافات النساء المارة أمامه تستوقف خاطره امرأة بلاده ، أمه وأخته وزوجته وابنته أولئك اللاتي أوجدتهن الطبيعة صديقات لحزنه وأنسه . وكأنني به يناديهن فيلين النداء بطيئات متسكعات تعبات . ويدنين فيرى عليهن غشاءً يمنع عنهن نور الشمس ونور الحياة : الحجاب !

لهذه الكلمة دويٌّ مرعب في نفسه كما لدويُّ أبواب السجون في مسمع من حُكم عليه بالسجن المؤبد ظلماً . فيمسك بهذا الحجاب ويقلب معانيه من جميع الوجوه ، ويدرس تاريخ نشأته وتأثيره في الشعوب التي اقتبسته ثم نبذته ، ويحلل أسبابه ويتبصر في نتائجه ، ويراجع أقوال الكتاب العزيز والحديث الشريف وعادات القوم ، فيقرر بعد البحث والتعليل أنه ليس إسلامي الأصل ما دام أنه استعمل عند أمم سبقت الإسلام ، وأنه ليس واجباً على المرأة المسلمة ما دام أن ليس في الشرع نص صريح يأمر به . هو في نظره أثر من آثار الهمجية الأولى ، بل هو « أقصى وأفظع أشكال الاستعباد . ذلك لأن الرجال في عصر التوحش كانوا يستحذون على النساء أما بالشراء وإما بالاختطاف » ويتابع قائلاً :

« فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج أن تعيش النساء في حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة أنها إنسان لكنه ناقص غير تام . أكبر على الرجل أن يعتبر المرأة التي كانت ملكاً له بالأمس مساوية له اليوم فحسن لديه أن يضعها في مرتبة أقل منه في الخليقة . وزعم أن الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرّمها من هذه الهبات » وقال إنه « يلزم أن تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وأن تقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقصر في بيتها وتستر وجهها إذا خرجت حتى لا تفتنهم يجمالها أو تخدعهم بحيلها ، وأنها ليست أهلاً للرق العقلي والأدبي فيلزم أن تعيش جاهلة » . « وذلك هو السر في ضرب الحجاب وعلّة بقاءه إلى الآن » . « ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هي الحجة التي اتخذها الرجال لاستعبادها وجب علينا أن نبحث في طبيعة المرأة لنعلم إن كانت كما يقال أخط من طبيعة الرجل أم لا » . « ولا ريب أن المرأة اليوم أخط من الرجل في الجملة ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طرق تربيته » . « لأن الرجال اشتغلوا أجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستتارت عقولهم وتفتّت عزمهم بالعمل ، بخلاف النساء فإنهن حرم من كل تربية ، فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي . لا نريد بهذا التساوي إن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه ، ولكننا نريد أن مجموع قواها وملكاتها تكافأ مجموع قواه وملكاته وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر » . « وبعبارة أخرى يوجد مذهبان أحدهما ينصح للناس بالتمسك بالحجاب والثاني يشير عليهم بإبطاله » . « فأَيّ المذهبين يتفق مع مصلحتنا وتوفّر به منافعا ؟ أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ويمنعها من استكمال تربيته . ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة . ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية . ولا يأتي معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن . وبه تكون الأمة كإنسان أصيب

بالشلل في أحد شقيه . « وأما الحرية فزايها هي إزالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب وسبق ذكرها . وضررها الوحيد أنها في مبدأها تؤدي إلى سوء الاستعمال ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسؤوليتها وتحمل تبعه أعمالها وتتعود على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تربي فيها فضيلة العفة الحقيقية التي هي ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح ، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة ولا لوجود حائل ليس في الإمكان إزالته بل لأنه قبيح من نفسه . وبالجمله فإن « المرأة لا تكون ولا يمكن أن تكون وجوداً تاماً إلا إذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والقطرة معاً ونمت ملكاتها إلى أقصى درجة يمكنها أن تبلغها . والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها » (١) .

كم يخطيء من لم يعرف من قاسم أمين سوى أنه ينادي برفع الحجاب ، وهو الأمر الذي اشتهر به ! وأنه يريد للمرأة الحرية المطلقة بلا قيد ولا شرط ، وهو ما يقوله الذين لم يقرأوا كتبه ! أنه من أكثر من أعرف محافظةً على أنثوية المرأة ومترتها في العائلة والأمة - وأن أنصفها في غير هذا الدور .

(١) تحرير المرأة .

(٩)

قاسم أمين وباجشة البارية المقابلة بينهما (تابع وخاتمة)

قال المقتطف في وصفه حفلة التأين لقاسم ، أنه ورد في خطاب السيد رشيد رضا الكلمات الآتية : « أخبرني قاسم أمين أنه كان يوماً أطلع على ما كتبه الدوق داركور غافلاً عن حال النساء بمصر فآله ذلك النقد والتشنيع فاندفع إلى الرد^(١) بوجدان الغيرة وبعد أن شفى غيظه وأرضى غيظه بذلك عاد إلى نفسه وفكر في الأمر فرأى أن كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك إلى درس هذه المسألة . » وانتهى به البحث والتنقيب إلى تصنيف كتاب « تحرير المرأة » .

والواقع أن من طالع الرد على الدوق داركور وعلى كتاب « تحرير المرأة » رأى أن فكر قاسم ارتقى واتسع وتسامى في الفترة التي مرت بينهما . وقد عزز هذا الكتاب بكتاب « المرأة الجديدة » ردّاً على معارضيهِ فجاء كالكتاب الأول ، بل أقوى حجة وأوضح دليلاً . فقسمه إلى حرية المرأة ، والواجب على المرأة لنفسها ، والواجب عليها لعائلتها ، ثم التربية والحجاب ، وخاتمة ترسم صورة الأفكار في تلك الأيام بالنسبة إلى المرأة . أما الحرية فلا بد من منحها إياها لأنه لا يظن « أن عقلاً يقبل أن تعتبر المرأة إنساناً كاملاً العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشق إذا قتلت ، ثم تعتبر أنها

(١) Les Egyptiens. Réponse à M. le duc d'Harcourt, par Kassem Amin.

ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شؤون الحياة العادية»^(١) فقال :

« على أن ما قيل ويقال من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا أصل له تبطله التجارب وينبذه العقل إذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد في ملكاتهن الأدبية وتبعث فيهن إحساس الاحترام لأنفسهن وتحمل الرجال على احترامهن »^(٢) .

ويرى واجب المرأة لنفسها في ترتيب أعمال الإنسان المنقسمة إلى ثلاثة أنواع : الأعمال التي يحفظ بها حياتها ، والأعمال التي تفيد عائلته ، والأعمال التي تفيد المجتمع ، مقررّاً أن هذه الأعمال من خصائص الرجال والنساء على السواء . ولكنه يضرب صفحاً عن نوع الأعمال الثالث لا لقصور المرأة وعجزها الظاهر الآن فحسب بل لأنه يرى « أننا لا نزال إلى الآن في احتياج كبير إلى رجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية » . يُسلم بأن الفطرة أعدت المرأة إلى العيشة العائلية ويردّد أن « أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعية هي أن تكون زوجة ووالدة » . إلّا أن هذا لا ينسبه الواقع وهو أن كثيرات ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية ، وأن عدد هؤلاء إثنان في المائة من مجموع النساء المصريات « فهل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعية من أن يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات ؟ » . ثم يتبسّط في الشرح قائلاً :

« يوجد في كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج ومن النساء من يكون لها زوج ولكنها مضطرة إلى كسب عيشها بسبب شدة فقره أو عجزه أو كسله عن العمل . ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن أولاد . كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن » . « يقول المعترضون أنهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال

(١) و(٢) المرأة الجديدة .

الرجال والاختلاط بهم كما أنهم لا يمنعون المرأة من التعليم إذا كان لازماً لكسب عيشها لأن الضرورات تبيح المحظورات». «ولا يخفى أن كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات». ولما كان الإطلاع على الغيب أمراً غير ميسور للإنسان وجب أن تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل أن تقع لها». فإذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيراً وتفيد عائلتها وإن لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها». «يجب أن تربي المرأة على أن تكون لنفسها لا لأن تكون متاعاً لرجل ربما لا يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها. يجب أن تربي المرأة على أن تدخل في المجتمع وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء. يجب أن تربي المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقاءها في نفسها لا في غيرها». «وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالاشتغال بأعمال الرجال وإنما معناه أنه يجب أن تنهأ كل امرأة للعمل عند أساس الحاجة إليه» (١).

هذه النقطة من الموضوع ينسأها كثير من يتعرضون لمعالجة تهذيب المرأة فيجزمون بأن لا وجود للمرأة إلا بجانب الرجل. فكيف يحيا ذلك العدد الكبير من النساء الذي لا يعيش للرجل؟ لقد انصفهن قاسم. ثم تحول إلى الوظيفة المباركة التي سماها واجب المرأة لعائلتها، مفصلاً كيف أن الناس عادةً يسيئون فهم تلك الوظيفة إذ يجعلونها مقصورة على الأمومة الجسدية، ناسين أن المرأة الحرة هي التي يكون لها نفوذ عظيم صالح في أسرتها، وأن نفوذ الجاهلة المستعبدة لا يعتدّى ما يكون «لرئيسة الخدم في البيت» وكم كان هذا النفوذ سيئ الأثر جالب الهم والغم! يلوم من كانت هذه حالتها مشفقاً ناسباً انحطاطها إلى من هو السيد، مُرجعاً أمره - كما فعلت الباحثة -

(١) المرأة الجديدة.

إلى أصله الحقيقي وهو إهمال الرجل وأنانيته وبطشه . وما تتعلمه البنات الآن ليس بكافٍ في رأيه لأن :

« أكثر ما تعرفه المرأة التي يقال أنها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائل التعليم وليست غاية ينتهي إليها . وما بقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء »^(١) .

هو يريد شيئاً أفضل وأبقى من هذه اللوامع الظاهرة التي يُعنى الأهل بطلاء شخصية بناتهم بها من العزف على آلات الطرب ، والغناء ، ومبادئ الرسم ، والكلام بلغة أو بلغات لا يحسن بها غير ثرثرة الاجتماعات وقراءة الروايات ، وتظارف الدمي تصنعاً بالصوت والحركة . يريد للمرأة شخصية قوية مستقلة ، ولا يظنها قادرة على القيام بوظيفتها في العائلة والأمة إلا إذا حازت جانباً كبيراً من المعرفة وهي الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها « شأن الإنسان من منازل الضعة والإنحطاط إلى مراقي الكرامة والشرف » . وإن لم تكن الأم راقية بمعرفتها وفكرها فكيف تستطيع تربية ابنها على مثل ذلك ؟ قال :

« غاب عنا أن الرجل إنما يكون كما هيأته والدته في صغره » . ويظن الجمهور الأعظم من الناس أن التربية من الهنات المهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم أن لا شيء من الشؤون الإنسانية مهما عظم يحتاج إلى علم أوسع ولا نظر أدق ولا عناء أشق مما تحتاج إليه التربية . أما من جهة العلم فلأنها تحتاج إلى جميع العلوم التي توصل إلى معرفة قوانين نمو الإنسان الجسماني والروحاني . وأما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته إلى بلوغه سن الرشد يحتاج إلى صبر ومثابرة في العمل ودقة في الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج إليها عمل آخر . لا يؤخذ

(١) تحرير المرأة .

من ذلك إني أذهب إلى أن كل أم يجب عليها أن تحيط بتلك العلوم الواسعة ولكن إن جميع الأمهات يجب عليهن أن يعرفن كلياتها وكلما زاد علم الواحدة منهن بأصول العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية أولادها . « وليس تأثير المرأة في العائلة قاصراً على تربية الأطفال بل المشاهد بالعيان أن المرأة تؤثر على جميع من يعيش حولها من الرجال . فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح في أعماله ، وأعدت له أسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لأشغاله . « وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوت عزيمته في حال اليأس والقنوط . وكم رجل طلب المجد ومعالي الأمور طمعاً في إرضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب » (١) .

(وأي مصلحة لرجل أعظم من أن يعيش ويحانه رفيقة تلازمه في الليل والنهار ، في الإقامة والسفر في الصحة والمرض في السراء والضراء ، رفيقة ذات عقل وأدب عارفة بحاجات الحياة كلها ، تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل أولادها تدبر ثروته وتحافظ على صحته وتدافع عن شرفه وتزوج أعماله وتذكره بواجباته وتنبيهه إلى حقوقه وتعرف أنها باجتهادها تجتهد في منفعتها كما تجتهد في منفعة زوجها وأولادها . وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته وتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه فيعجب بها ويتمنى رضاها ويتوسل إليها بفاضل الأعمال ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الأخلاق . صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ أوقاته وتذيب همومه ؟ هذه الحياة التي لا يشعر الرجال عندنا بشيء منها هي من أعظم النبايع للأعمال العظيمة) (٢) .

يا لبلاغته ساعة يصف المرأة المثلى ! أنه يتوق إلى أن يلقى فيها زوجة وأماً واختاً وصديقةً وحيبةً والهةً ومهذبةً جميعاً . وهو جائع عطش إلى كل ما تكته ذاتها من رحمة وحنو وحزم وحب شامل . كم كان أميناً لخيالها

(١) و(٢) المرأة الجديدة .

في ذهنه ساعة قال : إنه كلما حاول أن يتصور السعادة رآها امرأة « حلزونة
لجمال المرأة وعقل الرجل » .



في كتاب « تحرير المرأة » الذي هزَّ مصر يومئذٍ هزة عنيفة لم يطلب
رفع الحجاب دفعة واحدة ، بل هناك أقوال صريحة تدلُّ على أنه ليس أقل
من الباحثة اعتدالاً . مثلاً :

« إنني لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه
اليوم » . « وإنما الذي أميل إليه هو إعداد نفوس البنات في زمن الصبا إلى
هذا التغيير . فَيُعَوِّدُنَّ بالتدريج على الاستقلال ويودع فيهن الاعتقاد بأن
العفة ملكة في النفس لا ثوب يخفي دونه الجسم . ثم يُعَوِّدُنَّ على معاملة
الرجال من أقارب وأجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول
الأدب تحت ملاحظة أوليائهن » .

بل يعتقد : « أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها
إلى الآن - والنفوس على ما هي عليه - لعمت البلوى وزاد الفساد انتشاراً » .
« ولبس الدواء في تقليط الحجاب لأنه مستحيل . بل من مميزات شؤوننا
أن نحافظ على هذه الحالة » حالة الاختلاط بالأجانب وقبول الصالح من
عاداتهم « متقين المضار التي نشأت عنها . والطريقة الناجعة والحجاب المنيع
هي التربية الصالحة » .

« والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف
للنساء وقد تغالينا نحن في طلب التحجب » . « وبين هذين الطرفين وسط - هو
الحجاب الشرعي وهو الذي أدعو إليه » .

يمكننا اليوم أن نتخيل بسهولة بأيِّ حدة وغضب قولت هذه الدعوة
الجسورة ، وكيف هبَّ البعض يذفضونها ويرمون صاحبها بالكفر . أما هو فقرأ

تلك الانتقادات بتمعن وردَّ عليها بحصافة في كتاب « المرأة الجديدة »
حيث قال :

« وعلى اتنا بعد أن دققنا النظر في جميع ما قيل أو كتب في هذا الشأن ،
لا نزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه إلا وثوقاً بصحة ما ذهبنا إليه .
« لو لم يكن في الحجاب من عيب إلا أنه متناف للحرية الإنسانية ، وأنه
صار بالمرأة إلى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة
الفراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع أن تباشر عملاً
ما بنفسها مع أن الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاءة مساوية
لكفاءة الرجل ، وجعلها سجيناً مع أن القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره
للرجل - لو لم يكن في الحجاب إلا هذا العيب لكفى وحده في مقته وفي أن
ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية .
ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو أنه يحول بين المرأة
واستكمال تربيتها » .

ولعل هذا الرجل سليل الأمير الكردي تسعى أبداً في مجاري دمه ومطاوي
روحه تذكارات إغارات جدوده في جبالهم العصية وكل ما استنشقه آباء
آبائه من هواٍ نقي وتمتعوا به من حرية ، فما ذكر الحجاب والضبط إلا هتف :
« أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصورة الجناح مطاطاة
الرأس مغمضة العينين ، وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها والسماء
فوقها والنجوم تلعب ببصرها وأرواح الكون تناجيها وتوحي إليها الآمال
والرغائب في فتح كنوز أسرارها ؟ » .

وللمعترضين بأن الاطلاق يحلب الضرر يجيب : « أما الاطلاق في نفسه
فلا يمكن أن يكون ضاراً أبداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة . لأن التربية
الصحيحة تكون أفراداً أقوياء بأنفسهم يعتمدون على أنفسهم ويسرون
بأنفسهم فن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن نقصت

تربيته احتاج إلى الغير في كل أموره . فالاستقلال في النساء كالاستقلال في الرجال يرفع الأنفس من الدنيا ويبعدها عن الخسائس . لذلك يجب أن يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء .

بيد أنه أدرك أن إصلاح المرأة لا يتم بالتربية وحدها ما لم يتوفر لها وسط يكفل حفظ ما تكسبه من فائدة معنوية ، ولا بدءاً لذلك من كمال نظام العائلة القائم على مسائل مهمة ثلاث ، وهي . الزواج والطلاق وتعدد الزوجات . وقد جعل أساساً لكلامه الآية الحكيمه القائلة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

أين « المودة والرحمة » ؟ يسائل قاسم نفسه . أمن دواعي المودة أن يرتبط الزوجان برباط الزواج قبل أن يتعارفا وقبل أن يميل كل منهما للآخر ؟ أمن دواعي المودة أن لا يتفاهم العروسان إلا بعقول الآباء والجيران والرسل ، وأن لا يعلم الواحد من أحوال الآخر إلا ما يسمعه نقلاً عن ناقل مغرض أو متوهم ؟ وأين تلك « الرحمة » من رجل يتزوج من النساء ما شاء ومتى شاء ؟ وأين الرحمة في قلوبهن وكل منهن شاعرة بأنها مظلومة وأن زوجها مستبد طاغ ؟ أين الرحمة في قلب رجل يؤذي امرأة في أرق عواطفها وأعز ما عندها ، ويسحق حياتها وسعادتها تحت قدم أهوائه ؟

يقول بضرورة التلاؤم في الأذواق والميول ، وأنه لا غنى عن أن يرضى كل بهيمة صاحبه فلا يشعر بذلك « النفور » الذي يبعد بين بعض الأشخاص مجرد النظر ، ويقول بوجود ائتلاف الملكات والعقول . ولا يتأتى كل ذلك إلا إذا خالط كل منهما الآخر ولو قليلاً قبل الخطبة ، وبهذا الاجتماع عود إلى « أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وهو إصلاح يقضي به العقل السليم » . « لأن رجال العصر الجديد لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تستعمل في كل شيء » . « وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة في انتخاب زوجها

ما للرجل في انتخاب زوجته فإنه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوي قرابتها .

أما تعدد الزوجات فقد قاومه بشدة مستعيناً في ختام المرأة الجديدة بالتقرير الذي وضعه يومئذ فضيلة خالد الذكر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بشأن إصلاح المحاكم الشرعية . تعدد الزوجات عنده عادة « بربرية » كانت منتشرة عند ظهور الإسلام ولا محل لها في هذا العصر الذي تصعد فيه الشعوب درجة الرقي ، وأن الفرد إذا ارتقى إلى حد عرف عنده كرامته وكرامة الزوجة والأولاد ، مال إلى الاكتفاء بامرأة واحدة . لأن :

« في تعدد الزوجات إحتقاراً شديداً للمرأة » . « وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم إذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى إذ لا يتخلو حالها من أحد أمرين أما أن تكون مخلصة في محبتها لزوجها فتلهب نيران الغيرة في قلبها وتذوق عذابها . وأما أن لا تكون كذلك وهي راضية بعشرته بسبب من الأسباب فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاماً في أهله فإذا ارتبط بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه إحساسها بأن ذلك المقام الذي كان باقياً لها قد انهدم ، ولم يعد لها أمل في بقاء شيء من كرامتها عنده » . « ولا ريب في أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد في نفس الرجل المهذب حتى يشعر دائماً بأنه هو السبب في هذا الشقاء . ثم أن الأولاد من أمهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق » . « مثلهم كمثل الممالك الأورباوية تظهر بحالة السلم وهي تأخذ أهبثها للحرب حتى إذا حانت الفرصة وثب كل منها على الآخر فزق بعضهم بعضاً كما نشاهده في أغلب العائلات » . « فلا رية بعد هذا أن خير ما يعمل الرجل هو انتقاء زوجة واحدة ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي زوجته وأولاده حقوقهم من الثقة والترية والمحبة وأقرب إلى الوصول إلى سعادته » ^(١) .

(١) تحرير المرأة .

ولا يحيز التروّج بأكثر من واحدة إلا في حالة الضرورة المطلقة . ومن ثم يصل إلى الطلاق فيقول بأنه يفضل أن يكون الزواج عقدة لا تنحل إلا بالموت » ولكن مما يجب مراعاته أن الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر » . فيبيح الطلاق حيثنذ لأنه من المضرات التي لا يستغنى عنها ومنافعه تزيد أضراره على ما يرى . غير أنه يقبحه كما هو شائع مبنيًا على اللفظ المستعمل بسهولة العادة ، ولا يقبل به إلا مع النية الحقيقية والإرادة الواضحة برفع قيد الزواج ووقوع الانفصال . وقد سنّ للطلاق نظاماً قائلاً إن الحكومة إذا أرادت أن تفعل خيراً للأمة فعليها أن تعمل به . وهو :

(المادة الأولى) كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته .

(المادة الثانية) يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما وزد في الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله وينصحه وبين له تبعه الأمر الذي سيقدم عليه ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

(المادة الثالثة) إذا أصرّ الزوج بعد مضي الأسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة أو عدلين من الأجانب أن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

(المادة الرابعة) إذا لم ينجح الحكمان في الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدموا تقريراً للقاضي أو المأذون وعند ذلك يأذن القاضي أو المأذون للزوج بالطلاق .

(المادة الخامسة) لا يصح الطلاق إلا إذا وقّع أمام القاضي أو المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية .

وليكون انصافه تاماً مستوفياً قال ان اعتبار المرأة لنفسها وحفظ كرامتها

يقضيان بمنحها حتى الطلاق ، كما للرجل ، وإنه ليس من العدل ولا من الإنسانية أن تُسلب واسطة التخلّص من زوج شرير أو من ذوي الجرائم ، إلى غير ذلك ممّن لا يمكن لامرأة سليمة الذوق والخلق أن ترضى بمساكنته .

معلوم أن هناك ضرباً من الزواج يدعى « زواج العصمة » به تحفظ المرأة عصمتها-بيدها فتطلق عندما تشاء دون أن تقدم سبباً للمحكمة . ويقال إن عدداً يذكر من أغنياء المصريين يحفظون عصمة بناتهم عند الزواج ، وأن المرحومة البرنيس نازلي هانم كانت متروجة على هذه الكيفية .



ينجلي من كل ما سبق إذن ان باحثة البادية وقاسم أمين متفقان في وجوب إصلاح المرأة وفتح أبواب التعليم أمامها وجعل التربية متوفرة لها ، وعلى أن هذه من خصائص المنزل . كذلك هما متفقان في وجوب الاجتماع والتعارف قبل الخطبة ، وفي حلّ مشاكل الطلاق وتعدد الزوجات . ولا يختلفان في مسألة الحجاب إلا قليلاً ، لأن كلاّ منهما يعترف بخطئ إباحته بلا استعداد ، وبضرورة تعويد البنات عليه في الصغر وإعدادهن له مسلّحات بالعلم الكافي والتربية المتينة . هذا في النقط الأساسية . أما من حيث التفاصيل فإن كلاّ لحق فطرته وأثبت نظرتة الخصوصية في الحياة .

قضى قاسم أمين سنة ١٩٠٨ وقضت الباحثة منذ عام وشهر وبعض شهر . فما هي نتيجة عملهما ، وما هو الأثر الذي تركاه في بيتهما ؟ إنه يصعب جداً تعيين هذا الأثر وحصر تلك النتيجة ، لأنّ عمل الفكر مكروب خير وضياء يسري متوارياً في الأذهان والعواطف ، محتجباً عن أنظار الناظر وإحصاء الحاسب . اتنا لا نستطيع أن نتصور كيف تكون الحالة لو لم يحيثا ويكتبا . أما من جهة الباحثة فلو لم يكن غير خلفي التأين اللتين أقام

أحدهما الرجال لمرور الأربعين يوماً على وفاتها ، وعقد الأخرى النساء لمرور العام ، لو لم يكن غير ما قيل في رثائها وإذاعة فضلها مما لم يكن لامرأة قبلها في مصر الفتاة - لو لم يكن غير ذلك لكفى لتعين مكاتها العالية . وسل الشبية التي كتب لها قاسم أمين وهي طفلة تلعب ووضع كل آماله فيها ، سلها عنه تجبك كم تقدره وإلى أي درجات الاعزاز والإكبار يصل في نفسها .

لقد شاء قبيل الحرب أن عدداً من الشبان المتعلمين اتفقوا فيما بينهم على تأليف جمعية لتحرير المرأة حتى إذا بلغ عددهم الألف أطلقوا الحرية لنسائهم واخواتهم وأمهاتهم وبناتهم وأباحوا لمن ان يخرجن سافرات . ليس أن قاسم أمين أوجد هذه الفكرة بكتاب « تحرير المرأة » حيث اقترح تأسيس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة الجديدة وأن يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين ، ويكون عمل الجمعية في أمرين : الأول التعاون على تربية البنات على القاعدة الحديثة . والثاني السعي لدى الحكومة في إصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط أن لا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية .

وأما الحكم في صلاحية ما ارتآه كلٌ من هذين المصلحين الجليلين فهو كما قال حافظ في مراثيه لقاسم أمين :

الحكم للأيام مرجعهُ في ما رأيت فتم ولا تسل
وكذا طهارة الرأي تركهُ للدهر ينضجهُ على مهل

ليتبّه الآن كلٌ منهما في أكفانه متلفتاً كما يتلفت الزارع إلى سهول زرع فيها حبات قلبه يريا أن البذور المودعة في صدر الأرض نمت وترعرعت وصارت خضرة سندسية تبشّر بالحصاد الذهبي العتيد . يريا الشبية ناهضة والمرأة مشاركة الرجل في أفكاره وعواطفه . يريا أن فئة بدأت تفهم ما قاله

تسن من أن قضية المرأة هي قضية الرجل^(١) ، وأن هذا وتلك عامودا العائلة فإن مال أحدهما وقصر واختل وضعه تداعى سقف الأسرة وإنها صرح الاجتماع القائم على دعائم العائلة . يريا نفوساً متيقظات وعقولاً تدرك كرامة الأفراد وكرامة الجماعات . نعم أن هذه فئة صغيرة من المجموع الكبير ولكن نقطة النور ستظل آخذة في الإتساع حتى تشمل القوم قليلاً قليلاً . إذ ذاك تقدر مصر المفكرة قدر من فتح الطريق بكل ما لديه من وسيلة وقوة . إذ ذاك تشعر نحوهما بتلك العاطفة التي هي فوق الإعجاب والشكران ، وقد سماها كارليل « عبادة الأبطال » فتطلق على كل اسم « بطل الإصلاح » .

وعلى هذا فكلمتي الأخيرة كلمة أمل ونشيد ظفر . والحكم في مستقبل المرأة المصرية - وامرأة الشرق الأدنى على العموم ، لأن مصر عظيمة الأثر في ابناء هذه الأقطار - يجب أن يستخرج من كتاب « تحرير المرأة » ، ذلك الحكم الذي أصدره المؤلف ساعة وحي ودونه في السطور الآتية :

« أنه لا بد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة . فإذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسماً . ويرى المرأة التي يبيتها المستقبل تتلألأ في أنوار جمالها ظاهرة مظهرها القطري ولابسة حلة كمالها الثنائي : الجسم والعقل » .

The woman's question is man's; They rise or risk Together, dwarfed or god-like, bond or free. (١)
Tennyson.

بَيْنَ كَاتِبَتَيْنِ إلى باحثة البادية

ترنمتُ باسمكِ قبل أن أعرفكِ ، واتخذتُ ذكركِ عنواناً لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطلع مقالتيك لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك . غير أنني عثرت بالأمنس على مجموعة كتاباتكِ النفيسة فأنحيت عليها ساعاتٍ طويلات فيها خيل لي أنني أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجة .

ثلاث سنوات مضين ، وتلك المجموعة محفوظة بين دفات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوماً بعد يوم . لكن سرّهما ما زال مترقباً يبدأ تلمسه ، مستعداً لمناجاة نفس تلمسه .

سنوات ثلاث ، فيها مشيت البشرية خطواتها الملعوبات متعثرة بالعظام والجماجم ، منشدة أهازيج النصر الكاذب وتهاليل الفخر الباطل ، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف ، ودماء حياتها تجري أنهاراً في سهول قد أخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الإنسان .

سنوات ثلاث فيها شعرنا بإرتداد صدمات السياسة والاقتصاد والإطماع المتزايدة . فيها ارتفعت دويلات جادة مجتهدة وتهشحت أعضاء تركيا العظيمة

(١) هذه هي المراسلة التي سبقت التعارف وأدت إليه . وقد نشرت يومئذ هذه المقالة في الجريدة والحروسة .

بتاريخها الضعيفة بإهمالها وتهاونها . وقد جاش لذلك كل ما في صدر الإسلام
من النخوة القديمة وبكت له قلوب الغيورين على مصالح بني عثمان .

كل ذلك ومصر ، مصر بكآبتها وانعطافها واندفاعها . كل ذلك ونحن
هائمون على وجهها في صحراء القوضى . صخور التقاليد القديمة تدمي
أقدامنا الجديدة ، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا الممتدة للمس أشياء
نظفها موصلة إلى حياة نريدها عظيمة . والسراب الجميل اللامع في حلود
المستقبل غير المحلود يستدعينا آمراً كأنه نظرة عين فتاة ، فتجري في
الصحراء ولا ندري إلى أين المصير !

سنوات ثلاث مررن على يوم فيه ارتفع صوتك مرشداً . عائلتنا لا تزال
على ما كانت عليه ، وأفكارنا لم تتغير إلا قليلاً ، وعواطفنا ما برحت حائرة
بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعي أننا نعلم وما نجعل
أننا لا نعلم ! غير أن الأصداء الخفية ما زالت ترجع همس ذلك الصوت
الرخيم .

بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة وددت
تقبيلها بشفتي روحي ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا أثم بناني على غير هدى .
ولم يكن ذلك إلا إجلالاً لصفحات قلبها وجأً لنفس استجوبتها فعرقتها .

فيا من ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها ، أيتها الباحثة
الحكيمة ، لماذا تصمتين ؟

تتوالى الأيام ونحن في ضلال ميين . الرجل يجاهد في حرب الاقتصاد
الدائمة . الرجل تائه في مهام أشغاله ، فإذا كتب بحث في العموميات ،
وإذا أجال قلمه في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان
النسائي لأنه يكتب بفكره ، بأنانيته ، بقساوته . والمرأة تحيا بقلبها ، بعواطفها ،
بحبها .

علّاتنا مستعصية لا يشفيها إلا طيب يعرفها . والمرأة بعلّة جنسها أدرى
فهي تستطيع معالجته . ولا تُطلبُ هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن
من الحياة إلا ما يصوره لهنّ الخيال المخمّم بطلانه على منابت العواطف المخصبة .
هذا اعترافٌ ساذج صادق : الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع
أو ليصورن الابتسامات . وما تجاوز ذلك علامات استغهام متتالية وإن
لم يُر فيها من الاستغهام شيئاً .

لكنّ الزوجة والأم التي أعطيت ذكاء وفطنةً وعلماً وشعوراً قوياً تدرك
بواسطته كل ما في الحياة من حلاوة ومرارة - تلك تستطيع وضع المرأة
في مركزها السامي ، وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفي الشخصية المتألمة ،
شخصية المرأة وشخصية الرجل .

فيا سيدتي ،

لدينا قلوب تحترق ولا ندري أي در تحرقها ، وتلهب شغفاً بما لا نعرف
ماهيته ، فعلمينا أنت التي كنت فتاةً قبل أن تكوني أمّاً كيف نُرشدها وإلى
أين نوجهها !

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة ، فارشدنا
أي الأعشاب فاسدة فنقتله وأياها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان !

قولي يا سيدتي تكلمي !

ضمّي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هوة
الحيرة والتردد . ساعدي في تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتاً
خارجاً من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح كصوتك ، قد يفعل في
النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار .

لا يهمننا أن نخفي تلك اليد النحيفة وراء جدران خلدك وأن تحجبي

هيتك الشرقية وراء نقابك الشعري ، ما دمتا نسمع صوتك في صرير قلمك
ونعرف منك روحك العالية .

فهنيئاً لوطن يضم بين بناته مثيلتك ، وهنيئاً لصغار يستقون وعود
الهناء من ابتسامتك ويسكبون حياتهم في قالب حياتك^(١) .

معي

(١) لم تكن الباحثة أما ولم أكن عالة بذلك يوم وجهت هذه التحية اليها .

إلى الأنسة مي

إلى الكاتبة الفاضلة الأنسة مي :

قرأت تحبيدك لكتاب شقيقي (باحثة البادية) ودعوتك إياها أن تثابر على الكتابة في موضوعها «النسائيات» وإني أنوب عنها في الشكر لك على ما جاء في مقالك من حسن الفكرة وقوة التعبير والخيال وأعتذر لعدم قدرتها على الكتابة الآن . ذلك لأنها في فراش المرض منذ ثلاثة أشهر . وانها لم تنسَ قط الاهتمام بما يرقى المرأة الشرقية على العموم والمصرية على الخصوص وإن كان ذلك الإصلاح على ما فينا من عيوب داعياً للقنوط أحياناً . ولعل الله يشفيها في القريب العاجل لتقوم بما خصصت نفسها له هذا وتفضلي بقبول شكري واحترامي .

حنيفة حفي ناصف

إلى الأنسة فتي

تفضلت فكتبته إلي كلمتك العذبة في الجريدة وكنت إذ ذاك بين
مخالب الموت فلم يكن في وسعي أن أمسك القلم لأرد عليك وإن كانت
مخيلتي لم تبخل بالرد . كانت رسالتك عزاء جميلاً لي في مرضي الطويل
المؤلم ، وبلسماً ملطفاً لجراحي البالغة التي قلت أنك عثرت عليها . آلامي
أيتها السيدة شديدة ، ولكني أنقلها بتودة كأني أجر أحمال الحديد ، فهل
تدري يا سيدتي ما هو لي . ليس لي بحمد الله ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز
غائب أرنيجه ولا أنا ممن تأسروهم زخارف هذه الحياة الدنيا ويستولي عليهم
غرورها فأطمع في أكثر مما أنا فيه ، وليس لي حال سيء أشتكيه ولكن لي
قلبا يكاد يذوب عطفاً واشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها
وهذا علة شقائي ومبعث آلامي . إن قلبي يتصدع من أحوال هذا المجتمع
الفاسد .

وما لي أحمل نفسي أعباء غيرها وليس بمسيطرة على هذا العالم ولكني
كنت عاهدت نفسي على الأخذ بيد المرأة المصرية ويعز علي أن أنجلي عن هذا
العهد وإن كان تنفيذه شاقاً ومحفوفاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقي إليه .
كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندي ولا إكفاء بالقليل الذي
كتبته من قبل ولكني كنت مللت المناذاة بإصلاح المرأة المصرية ونبط
عزيمي ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين
القومية المصرية المطلوبة وما حركتهم التي ملأوا بها القطر صراخاً إلا عنوان
نهضة كاذبة .

تسأليني يا سيدتي أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجه وأنها لحال توجب الحيرة ولا تدري أي الطرق نسلك لنصل سريعاً إلى الغاية التي نقصد إليها . كلنا يرمي إلى تقدم الفتاة وتنوّرها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأمّاً نافعة أبناءها ووطنها ولكن لكل منادٍ بالإصلاح وجهة هو موليا . فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعاً للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل تكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشي الأبصار .

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لا ينفي العلم وإن إطلاق الحرية للمرأة أخيراً كان سبباً لفسادها وأن اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت أختها الغربية الآن . فأَي الطريقين نسلك ومن نتبع ؟ إننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهي فينا حتى أصبحنا ولا رأي لنا في أنفسنا . فإذا قال لنا اختبئ حتى تدفن بالحياة صوناً لكنّ وتدليلاً كما يقول المتنبّي في رثاء أخت سيف الدولة :

(على المدفون قبل التراب صوناً)

وكقولها في أخت مملوحة الثانية من رثاء أيضاً :

وما رأيت عيون الأنس تدركها

فهل حسدت عليها أعين الشهب

وهل سمعت سلاماً لي ألم بها

فقد أطلت وما سلمت عن كسب

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرننا ، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولأجلنا أم هو يريد بنا شراً ؟ لا شك أنه أخطأ وأصاب في تقرير حقنا

من قبل ولا شك أنه يخطيء ويصيب في تقرير حقوقنا الآن .

نحن لا نأبى أن نتبع رأي العقلاء والمصلحين من الأمة ولكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدى للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين . ليدعنا الرجل نبحث آراءه ونختار أرشدها ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا) . إننا سئمتنا استبداده . إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وإنما نخاف عينيه ولسانه فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وأن يكن لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا في أمرنا وأمره ، وإلا فكل منا حرّ يفعل ما يشاء . والسلام عليك أيها الفاضلة من المعجبة بكِ المثنية على أدبكِ الجم وعلمك الغزير .

باحثة البادية

إلى باجشة البادية

ليس أعزُّ لدينا من لطفكِ إلا حزمكِ وصراحتكِ ، وليس أجمل
من صدى صوتكِ إلا فعل معنالكِ . وإني لأقبض على شجاعتي بيدي لأعترف
بأنِّي أحبُّ - استغفر الله واستغفرك يا سيدي ! - آلامك النفسية الشديدة
من جراء شقاء الإنسانية وضلالها وأتمنى من أعماق قوادي أن يجد دوماً
تلك الآلام منفذاً رحيماً إلى قلبكِ ، وأن يبقى ذلك القلب كريماً ليناً ينجرح
لجرح الغريب ، ويبكي لبكاء المظلوم ، ويشفق على المتوجع أبداً كان .
بالاختصار - عفوك ! عفوك ! - أتمنى لك العذاب المعنوي لأنه النار المقدسة
أجل ، هو النار التي تطهر ، النار التي تُحيي ، النار التي تليّن ، النار التي
ترفع النفس على أجنحة اللهب إلى سماء المعاني السامية والميول الرفيعة والرغبات
الكريمة ، والتحمس لإجراء الإصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادئ الطيبة ،
والهوض بالاجتماع نهضة تهتّ لها القلوب حميةً وطرباً .

أتمنى لك ذلك ، ولولاه لما وجدنا في كتاباتكِ تلك الآنة العميقة
التي تنبّه الفكر وتلمس العاطفة في آنٍ واحد .

لا أنكر أن أنانيتي تتكلم الآن . غير أنني قلت ما قلت مسرعة هامة .
فابتسمي له ان شئت ، وإلا فلا تصنفي يا سيدي ولا تسمعي ، بل اسأليني
عما أهمل به لأجيب أني أحمد الله على ابلالكِ وأنّي أسأله أن يديك سالمة .
وما أغلى سلامتك لدينا !

جئت أسرُّ إليك أمراً وقفت عليه عندما شهدت صدى مقالتك لدى جمهور القراء. اسمعي يا سيدتي الباحثة ، وصوني سري !

رأيت جميعهم يتقبل أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الإعجاب ، ولكنني رأيت كذلك أسيادنا الرجال - ... أقول «أسيادنا» مراعاة ... بل تحفظاً من أن يُنقل حديثنا اليهم فيظنوا أن النساء يتآمرن عليهم ... فكلمة «أسيادنا» تخمد نار غضبهم - قلت إني رأيتهم يطربون لتصريحنا بأنهم ظلمة مستبدون . نعم آتست ذلك في ملامح كل من قرأ مقالك أمامي من أسيادنا الرجال .

فذكرت إذ ذاك ألا سرور في العالم يضاهي سرور التفاهم . فإذا شعر المرء بأن هناك من يفهمه كان سعيداً ، سواء لديه أن تُعرف منه صفاته أو علاقته لأن معرفة العلات تتبعها حتماً معرفة الصفات ، وإن كان الخير أقل انتشاراً من الشر . وما النقائص إلا فضائل مضخمة مكبرة تتسع وتستفيض دون أن تجد لها من الضمير مهذباً فتتجاوز الحدود المعنوية التي عينها اصطلاحات الاجتماع - إذا كانت اجتماعية - أو رسمتها علوم النفس والأخلاق ، إذا كانت اخلاقية .

فعملاً برغبة التفاهم ، وطبقاً لنظام المباهاة ، وتوصلاً للاستمتاع بتبجيعة هذه المباهاة وذلك التفاهم كان وسيكون السارق دائم المفاخرة بوقوف الناس على براعته في اختيار الطرق الجديدة واستنباط الحيل الغريبة . وكان وسيكون القاتل مسروراً بإعلان آثامه للورى آملاً أن يجدوا فيها أعمال بطل - من نوعه ! وكان وسيكون السياسي جاداً في إقناع الآخرين أن دهاءه اقتدارٌ وسوء ظنه وروغانه فطنةٌ وحكمة . كذلك الرجل يسر ، ويرجو ، ويريد أن تشعر المرأة باستبداده ظناً منه أن الاستبداد هو السيادة ، وأن هذه مقياس ذاتيته التي يريد بها كبيرة . رضيت المرأة عن تلك السيادة أم تمردت عليها في نظره سيان ، بل أظنه - سامحني الله إن كنت مخطئة - مؤثراً تمردها على إذعانها لأنها كلما زاد تمردها زاد شعوره بالسيطرة . وأشدّ

الملوك فرحاً بهزّ الصولجان ، وأرفعهم للرأس كبيراً وتبهاً تحت ثقل التيجان
هم ذوو العروش المتداعية للهبوط . والرجل ملكٌ متداعٍ عرشه لأن ريح
الفوضى تهبُّ عليه من كل جانب ، وخطوات الارتقاء النسائي تتوالى
متكاثرةً متمكنةً مع مرور الأيام .



لكنه ملك عزيزٌ .

هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج فإذا سقط سقطنا معه ،
وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيماً . لذلك نريد له خيراً ونجتهد في تأييد
دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه وأن نقف إلى جنبه وقفة المثل
بجوار المثل . نريد أن نكون متساوين في الحقوق الأدبية والعمرائية ما دما
متساوين في الواجبات والمسؤولية . بل إن واجباتنا ومسؤوليتنا يفوقان
ما عليه من مسؤولية وواجب !

فيا ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة ؟

ما أطيب قولك ، يا سيدتي الباحثة ، إنك تشفقين على من يستحق
الشفقة وعلى من لا يستحقها . الرجل من الذين يستحقون الشفقة لأنه لا يعرف
أنه يستحقها . أنه باستعدادا لمتحرٍّ . ولو صرفنا النظر عن مستقبل اللرية
وبحثنا في حياته الفردية لوجدنا أن ما من أحد يساعده على التخلص من
الشوائب الشائنة ويحثه على إتمام شخصيته الغنية المخصصة إلا نحن . كما أنه
لا يهديننا إلى واجباتنا ويضع في ضعفنا قوة الآه .

الحجاب ؟ وما هو الحجاب ؟

مرحباً به ما دما في وسط لا يعرف كيفية معاملة المرأة ولا يستطيع
احترامها . ولكن كيف نلوم الرجل على كلامه ونظراته . ما دام رجل اليوم

صنع امرأة الأمس ؟ هكذا علمته أمه وإن لم تعلمه ذلك فإنها لم ترشده إلى ما
يفضله ، ولا ذنب لها لأن قصورها في جهلها لم يكن إلا نتيجة اتفاق أبيها
وزوجها على جعلها عبدة .

لا لوم على أبناء تلك الأمهات . إلا أن مستقبلنا صالح لأن حاضرتنا
مملوءة بالآمال الطيبات . النشء تتنازع طبايع الوراثة ومؤثرات العصر وعواصف
القوضى المهاجمة قديم التقاليد من كل ناحية . ولكنه ينشد الصراط السوي
ويصغي إلى صوت الإصلاح . فارفعي صوتك ، يا سيدتي ، ولا تيأسي !
قولي بصراحتك ، واكتبي بشجاعتك ! جاهري ولا تصمتي !

إن البذرة التي تزرعها اليوم يد الزارع تنبت سنبلة في كيانها حياة الغد وما يتبعه
من الأيام . وعندما تنحضر المروج بنصرة الرجاء فتتماوج فوق غلتها نسمات
الحياة إذ ذاك سيسمع المستقبل صدئى جميلاً يردّد آيات الأمير شوقي :

صدح أيا ملك الكنا ر ويا أمير البلبلي
صبراً لما تشقى بو أو ما بدا لك فافعل^(١)

فتجيب الأصداء الجديدة . لقد فعلت ! لقد فعلت !

مي

(١) هي آيات من القصيدة الشهيرة التي وجهها أحمد شوقي إلى باحة البادية .

الساعة المفقورة

جعلها أرباب التجارة حليةً نسائية ، وأتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشري .

صورةٌ مصغرةٌ للكون ، كذلك كانت ساعتي . مساحتها رمزٌ للفضاء ، دورتها مسرح اللانهاية ، حدودها حلود الإمكان ، علاماتها مقاطع الوقت الذي رتبته الإنسان ، ساعاتها مقياس الأعمال ، دقائقها خوفٌ من هجوم الرزايا وترقبٌ لوفود الآمال ، ثوانها دقائق القلب ... من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تُنسج الحياة نسجاً .

فيا لهول ثواني الزمان ، ويا لهول نبضات قلب الانسان !

بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في أحشاء الثرى : الماء والنار ، فتميدُ الأرض بمن عليها ، وتتفطرُ أساساتها فتقذف البراكين مقلدوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية وتزفر الطبيعة زفرتها القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبةً بينها . تفتح صدرها مرحبةً فيتدحرجون إلى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخيراً .

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء وتختطف بروق السيوف غالي الأرواح . ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندكُ عروش وتتصب عروش ، تدمر ممالك ويعمر سواها ، تخرب مدائن ويشاد غيرها ، تتجندل أفرادٌ وتغنى مجاميع قترتدي الأقوام

سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان .

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس ، تبتسم شفة وتدمع عين ، يخون صديق ويخلص عدو ، بين الثانية والثانية !

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار . دماء داخلية إلى القلب ودماء منبعثة منه ، تنهات عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية . بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتر لها أعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان . اشتعال الفكر وخمود العاطفة ، ظفر البلاءه وتقهر النبوغ ، لذعات الغرام والحشرات العظام . قنوط ورجاء ، سعادة وشقاء . هتاف الروح المسلّمة ولهاث الروح المودّعة !



يا ابنة أبيك ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء ، ويخوننا يوم الصفاء ، ويهجّرنا حين اللقاء . فأنتِ غادرةٌ خائنة هاجرة كالزمان ، يا ابنة الزمان !

كم من ساعٍ طيات وقّعت مرورهنّ على دوران عقربك وفكري يناجيك بأحاديث هداه وضلاله ! أبسمُ لك عند السرور فأُنخلك صامتة تبتسمين وأتهدّ حيالك يوم الأسى فأتوسّمك تنهدين وتحزين ، وكأنّ عقربك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين .

لما أفنت قلبي وحدة القلب ضغطت بكِ على ساعدي قائلة « أنتِ الصديقة التي لا يخون » . ولما مزّقت سمعي أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتكِ قائلة « أنت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين » . ولما أذاني الجهل بدعواه والغرور بسخافته نظرتُ إليك قائلة « أنت عالمةٌ لذلك تصمتين » .

وكنّتِ تعزيتي !

وكنّتِ زماني ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان أطول إعراضك عني وأقل اهتمامك بي ! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة المداعبة . وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامي وآمالي ، وفي الصباح كنت أول عين أشاهدها وأول روح استجوبها .

كل ذلك وأنت لا تتبهين ولا تعلمين .

وها قد هجرتني . فقدتُكِ وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني !

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقنيها !

فإذا وقعت في يد شرير وقصد استعمالك ليؤدي أخاً له فانقلبي أفعى لساعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمك حتى تصرعيه قتيلاً .

... لكن لا ، لا ! ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم ، لو كنت تعلمين . وهم خلقون بالرحمة أكثر من الأخيار الصالحين . فلا تتحولي حية ولا تؤدي شريراً بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أبي فقير لتكوني من نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية . زيني بدأ شوّهت خشونة الخدمة جمالها ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبله والتجّب ! نامي هناك واسعدي ، ولو ساعة ، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

إن كان لديك ذاكرة تذكر ، يا ساعتني الصغيرة المحبوبة ، اذكري لحظة ما شهدتني معي من المرات واللففات ، اذكري واحفظي ما تعرفين ! ولكن ... ألسنت ابنة الزمان الذي نسبُ إليه في ضعفنا كل شيء وهو

في قوته لا يبالي بشيء؟ ترين بأي حافظة تذكّرين ، وبأي ذهن تتأمّلين؟
إنما علاماتك مدادٌ قد تحجّر ، وعقربك أصبح يشير إلى علامة يجهل منها
المعنى ، وأنت آلة ليس إلا ، وإن كنتِ آلة الآلات المثلّية .

أنت ابنة الزمان النامسي ،

وأنتِ مثله لا تذكّرين !

مي

إلى الأنسة مي

عزيزتي مي ،

لا تستغربي يا سيدتي اني دعوتك « ييا عزيزتي » وسأدعوك باسمك على غير معرفة شخصية سابقة . أقول شخصية وأحدّها لأنني عرفتك من كتاباتك الشعرية الجميلة من قبل وتعرفت منها بروحك العالية الهائمة في الفضاء وكأنها تبحث عن مستقر لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقر فيه .

وتعرفت بك بالأمس بل وارتبطت بك من دعائك عليّ بالعذاب المعنوي كأنني أنا المعنية بقول جميل :

وأول ما قاد المودة بيننا —————
بوادي بغيض يابئين سبابُ
وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله —————
لكلّ مقالٍ يابئين جوابُ

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك عليّ سباباً وحاشا أن يكون له جواب عندي من مثله فإني لم أقابله إلا بالضحك والحلم الذي ركب في غريزي .

لماذا يا مي تدعين عليّ بالعذاب المعنوي ؟ ألا إنما العذاب البدني أخف منه وطأة وأعفى أثراً . على أنني جربت كليهما وذقت الأمرين منهما معاً . تقولين « لأنه النار المقدسة » . نعم لقد أعطاني من القداسة مقداراً أكثر مما يجب للثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس .

تقولين « إنه النار التي تطهر . حقيقةً أنه تلقى وجداني بالتطهير منذ أن كان لي وجدان حتى صبره شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لأقل شيء وهذا فيه من الضنى والخطر ما فيه .

تقررين « أنه النار التي تحيي » . نعم يا مي . إنه أحيا روحي حتى أحرقتها لأنه كان كمصباح سيال كهربائه شديد ولكن فتيلته ضعيفة لا تحتمل .

هو « النار التي تلين » هذا ما أبديت . ولكن ألا تعتقدين أن اللين قد يؤذي ولا يفيد . خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وأنه لا بقل الحديد إلا الحديد . انه الآنني حتى صبرني ماء . وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة ! !

يصبونه فينصب ويرتقونه فيختفي في الأرض ويضعونه في كل آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد به من الألوان . تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحول برذاً ، وآونة تحمي عليها براكينها فيخرج ملتهاً وحيناً تحبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريء . ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكرًا فيحلون ويذيقون به الحنظل فيمر . وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بالجميل . وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلها . إنه مثلي يا مي يذهب ضياعاً .

وختمت حسن تعليقك لعذابي بقولك « إنه النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهب إلى سماء المعاني » الخ .

نعم يا مي انني الآن على أجنحة اللهب ولكني لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني فهل يا ترى ستعجبني السماء ؟ إني أشك

في ذلك . إني أول ما حفظت من الشعر حفظت المراني وأولها رثاء الأندلس .
وكنت في حداتي أقرأ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بروحه العالية وبفسه
الكبيرة وأظنه هو الذي عداني في ذلك وسَمَّ آرائي ، رحمه الله إني أَلَذُّ
كثيراً بهذه العنوى .

وقد قال لي أخي مرة بعد حديث كنتُ أشتكي له فيه الدنيا وأهلها
وأقول « لعل الله يجزييني على هذا في آخرتي بالجنة » .

قال متهمكاً « أنا واثق يا شقيقتي ان الجنة أيضاً لن تعجبك لأنه لا يكاد
يسرك شيء » . استغفر الله .

إنك يا ممي خالفت المألوف في التمنيّات والمجاملات الفارغة وهي كثيرة
وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيديّ الميلاد ورأس السنة المسيحيين) . قلت
« ابتمسي له » أي لدعائك « إن شئت وإلا فلا تصغي ولا تسمعي واسأليني عما
أهمس به لأجيبك إني أحمد الله على إبلاك وأني أسأله أن يديعك سالمة » الخ .
لا يا عزيزتي إني أكره الكذب والمجاملات الفارغة ولذلك أصليّتُ
وسمعتُ وابتسمتُ (حسب أمرك) وتسرتني جداً صراحتك حتى في الدعاء عليّ .

أُتدري يا ممي أن ذلك اليوم الذي تمنّيت لي فيه العذاب كان فيه عيد
ميلادي أيضاً وإني تفاءلت خيراً بدعائك وافتتحت عامي الجديد بالضحك
من تمّنيك وبصدّاقتي لك تبعاً لذلك التمني المعكوس . أشكر لك يا عزيزتي
أمانيك لي ورغباتك الصادقة وأقرّ لك إني واقعة فيما رجوت لي والحمد لله
ولكني يا ممي لا أتمنى المزيد . إنه عذاب طاهرٌ لا يتعدّى الميل إلى السكون
والشعور بشيء من الحزن الشعري الجميل . ولكنه والله المنة والشكر لا تخامره
شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم وأخشى أن يزيد ضرام النار التي طلبتها
لي فاحترق يا ممي أو أصل إلى ذلك الحد الذي لا أريده لنفسني ولا أظنك
تريدينه لي .

الساعة المفقودة

عجيب يا سيدتي إنك تريدني عذابي وأنا أريد هناعك . أتدريين ماذا سألقيه عليك فيفركك ؟

اني وجدتُ ساعتك المفقودة والتقطتها . رأيتك ترثيها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لأنني أحب دائماً أن أمسح دموع المحزون . تعالي إلي لتأخذها وتستغفرها من وصفك إياها بالغلر وبعدم الإحساس . فإنها أحست بشوقي لرؤيتك فأنت تقدمه لمجيتك ولتعارفنا .

إنها بثت إلي ما كنت تشكينه اليها من العواطف والآلام . عثرت عليّ وعثرتُ عليها لنكفي قلبك شرّ الفناء من الوحدة ولتؤكد لك أنك وجدت « الصديقة التي لا تخون » .

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل .

عجيب جداً يا سيدتي أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذي يسمى « بالرجل » . اني أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ولكني أظنه (وبعض الظن اثم) أنانياً قبل كل شيء ورأبي أن أنانيته وحدها هي أصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعبد لها لأنه ييغضها أو يتمنى لها السوء ولكن ليلهو بها وهو يخبها . ويموت لأجلها لا لأنه يحبها ولكن ليلهو بها وهو كل ذلك واسع الحيلة قوي الحجة فيقنعها فتصدقوه وهو كذوب .

أما المرأة فهي دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقة وإذا كرهته كرهته علانية ولم يكن لذلك البغض من دواء . عرف ذلك أبو الطيب فقال :
وان حقدت لم يبقَ في قلبها رضاءً

وان رضيت لم يبقَ في قلبها حقدُ

هي صديقة مخلصه دائماً حتى وهي خاطئة . هي تحب لتفنى في الحب ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب . هي تحزن وقت المصاب لتفرغ للحزن ، ولكن الرجل لا يحزن إلا ليبحث عن تعزية وسلوان .

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت . إنها تعلم أن حريرها الذي تقدمه للملأ زينة وحلية سيقتلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه .

أما الرجل فهو كالنحلة يتنقل من زهرة لزهرة متروّضاً وقد يطيل المكث على زهرة ناضرة وإنما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها . إنها تحب الأزهار حيناً ولكنها تلهو بها أحياناً فتتركها هشيماً . وهي تقدم للناس عسلأ فيه شفاء لهم وشمعاً نافعاً ولكنها تعملهما لغذائها وسكنها قبل كل شيء .

ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوي ظلمنا وإنما هو أخطأ كثيراً في حسابه إن ما يزيد في قوتنا يُضعف من قوته هو . لعلّه ظن أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر البنا نظر الدعيات الثائرات . وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوة في مملكته ونرجو منه أن يفكّ عنا الخناق في مملكتنا المستقلة التي تشدّ أزره ولا تفكّر في إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقوة . إننا نتقدم إليه كأننا ساعده الذي يُريد أن يخدمه لا كأننا يدٌ غريبة تريد أن تضربه . إننا منه وهو منا فليطب نفساً وليقرّ عيناً وليعطنا ما نشاء !

وإنما نحن يا ممي ضايقتاه في بعض شؤون مملكته حتى ظننا نريد منازعته فيها . لترك له السياسة التي يحبها وحمايتنا . وأقول لك همساً « اتنالا نفع بدونه ولكنه هو أيضاً لا ينفع من غيرنا » !

إن المطالبات بحق الانتخاب وإن كنّ يطلبن حقاً إلا أنهنّ ظلمات الرجل وأنفسهن معاً . لماذا يرمن مشاركة في الجلوس على كراسي « البرلمان »

ولا تقدّم واحدة منهم صبرها للقاء كرّات المدافع ونصال الفناء في الحرب .
الحق أحق أن يُتبع .

ليها الرجل بمملكته . إننا لا نهزُّ عرشه ليتداعى إلى السقوط كما تقولين
ولكننا نهزّه لنطلب منه ... « الدستور » .

باحثة البادية مرشاة

أكتب اسم باحثة البادية فيتمثل لناظري ذلك الثغر البسام وذلك الوجه ذو السمرة المصرية العذبة ، وأسمع صوتها الرخيم مردداً كلمات حلوة اللفظ لطيفة المعنى . وأضع يدي على مجموعة «النسائيات» فأشعر بالحياة الفائضة على تلك الفصول ، وما هي إلا توقد النفس المتوهجة بين صفحاتها . كل ما لباحثة البادية مملوء حياة مفيدة نافعة ، فكيف أصدق أن تلك الشعلة النادرة قد خمدت ، وأن ذلك الوجه الوضاح قد اختفى وراء وشاح الردى ؟

كانت عينا باحثة البادية مفعمتين ابتساماً كثفراها . ولكن إذا أمعن المرء النظر في أعماقها وجد بعد الغور والكآبة المقيمة وراء الابتسام مما يرى في عيني المفكرين وفي عيني الزمعيين على الرحيل العاجل ، أولئك الذين لا تطول حياتهم أكثر من زهور الربيع فيذهبون تاركين الجوّ حولهم معطراً بعبير مآثرهم .



إن لباحثة البادية مركزاً فريداً في الحركة الفكرية عندنا . بعد أن قام

(١) نشرت في المحرسة يوم دفن الفقيدة .

قاسم أمين يقول بتحرير المرأة وبإعطائها ما لها من حقوق أدبية واجتماعية ، قامت باحثة البادية تؤيد كلامه مظهرة أهلية المرأة وكرامتها ودرجة الارتقاء العليا التي يمكنها تسننها . قامت هذه المرأة العبقريّة ، ابنة الرجل الكبير ، تدرس أحوال البيئة المصرية فكان لها من ذكائها الفطري مرشد أمين ، ومن شعورها العميق منبّه مخلص ، ومن قلمها العربي الصميم أبلغ ترجمان وخير رسول . رأت حاجة قومها إلى الإصلاح فصاحت صبيحة ما زال يرثى صداها . وظلّت تكب وتخطب ناشدة الإصلاح ، وهي المرأة المسلمة الوحيدة التي فعلت ذلك في وسط ما زال رجعيّاً في ميوله ، بشجاعة وكفاءة وتفوّق لم ينل منها شيئاً انتقاد الناقدين وتعت المتحيزين .

كانت شديدة الحب لقومها ، شديدة الغيرة على وطنها ، شديدة التآلم لما تراه من علامات التأخر والانحطاط في البيئة المصرية . ومجموع هذه العواطف من حبٍّ وغيره وألم كان يتخلّل كل ما تكتبه كأنين متواصل يتقلب ساعة الوجع الشديد زفيراً وعويلاً . كذلك يتآلم صاحب العقل والقلب الكبيرين كأنما هو يتآلم عن أمة بأسرها !



لما زارتنا للمرة الأخيرة كانت ترافقها صويحبة لها . فأخذت هذه تنقرّ على العود وأنشدت الباحثة بصوتها الشجي هذين البيتين من الموشّع الأندلسي المشهور :

جاءك الغيثُ إذا الغيثُ همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً في الكرى أو خلصة المختلس

وكانها كانت في تلك الساعة متنبئة عن نفسها ، متنبئة بأن وجودها بيتنا ليس إلا حلماً في الكرى أو خلصة المختلس ، وأنها راحلة عما قريب

في مستقبل العمر ونضارة الشباب !

ولكن موتها ليس فناء . ان أمثالها يحسنون للجمهور وهي محسنة للجنس النسائي خصوصاً في هذا العصر الذي تخطو فيه المرأة خطواتها الأمامية في سبيل الارتقاء . نحن في حاجة شديدة إلى نساء تتجلى فيهن عبقرية الرجال دون أن يفقدن صفاتهن النسائية الجميلة من لطف العاطفة وعلوبة الخلق ، والركة والدعة والإستقامة والإخلاص . كذلك كانت باحثة البادية التي برزت شخصيتها فأعلت شأن بنات جنسها إذ ظهرت كاتبة كبيرة ، ومصلحة غيرة ، وإمرأة عاقلة ، وصديقة أمينة . فشغلت في حياتنا الأدبية ، وفي حياة المرأة الشرقية عموماً ، مركزاً سامياً جليلاً قلما يبلغه غيرها .

فلئن بكيت اليوم الصديقة الوفية والثغر الحلو البسام ، فإني أحيي المرأة الخالدة بآثرها وأحني الجبهة أمام المحسنة الغيرة . إن باحثة البادية لا تموت ولا يمكن أن تموت ، وستظل حسنها باقية ما بقيت لغة القرآن . والشعلة التي توارت اليوم في ظلمة القبر هي التي تطل من سماء البقاء منيرة طريق الارتقاء للمعجبين بها الآسفين عليها .

فوداعاً أيتها الراحلة الكريمة ! لئن نزل البلى بيدك الرطبة فإن الخلود نصيب ذكرك وفضلك . سيري إلى حيث لا حجاب ولا سفور ، حيث النور شامل والجمال مقيم ! هناك يحيط بك أمثالك من الأرواح الكبيرة في دار هي مقر الذكاء والنويع ، فأنت حقيقةً بسكناها وهي حقيقةً بأن تسكنها .

وأنا التي عرفتك وأحببتك ، مع الدموع التي أذرفها على ذكرك تريني . جاثية أمام ضريح ضمم جسمك الثمين لأضع عند جوانبه باقة أزهار تُعبر عن شكرنا لك . لكن الأزهار تموت ، أما شكرنا فخالد كفضلك !

مي

تأثير باحثة البادية

قضت باحثة البادية بعد سكوت سنوات أربع فكان موتها أفصح مقالة وأبلغ موعظة . وقد كشف ذلك الظرف المحزن عما لها من مكانة رفيعة في نفس الجمهور ودلّ على درجة الارتقاء العالية التي يسعُ المرأة الوطنية أن ترمي إليها .

لا أدري هل نالت من الأذهان والقلوب فصول الباحثة وآراؤها وما كانت تبغيه من إصلاح أيام جهادها مثل ما نالت بعد رحيلها ؟ أنه ما طار نعيها حتى انتشرت الكتابة وعمّ الأسف ، فسوّدت أعمدة الصحف حزناً عليها وكثرت فصول الثناء على فضلها . وقد اشترك في ذلك الرجل والمرأة ، والمحمدي والعيسوي ، والشاعر والنائر ، والأديب والصحافي ، حتى الذي لم يكن ليعنى بالصفحة النسائية من الأدب العربي ، وجد كلمة له في يضيفها إلى ما قرأ وسمع من كلمات الحزن والأسف .

ذلك لأن مثل هؤلاء النواذر لا يخصُّ أسرته فحسب إنما تكون أمتة بفقده خاسرة . لما صمت صوت الباحثة للمرّة الأخيرة أدرك الجمهور أن ذلك الصوت كان شجياً ، وأن القلم الذي انتزعت مخالب الردى كان صريه موسيقياً . أليس من طبيعة الأنام أن لا يفتنوا لجمال شيء وندرته إلا بعد الغياب الذي لا حضور وراءه ؟ !

ولم يقتصر على فصول الصحف وقصائد الشعراء بل غني النساء بإقامة

حفلة تأيين من جهتهن بينا كان الرجال ينظمون حفلة الرجال . فسبق هؤلاء وأقاموا حفلة الأربعين برئاسة معالي وزير المعارف ، وكانت جامعة لكل مظاهر الجلال . فرأت اللجنة النسائية المشكلة برئاسة حرم سعادة شعراوي باشا أن تؤجل عملها فتعقد اجتماعاً نسائياً لمناسبة مرور العام على وفاة الفقيدة ، وأن تسعى في خلال هذا العام لإيجاد أثر لذكرها الطيب في المدرسة التي تخرجت منها . وبجهد تفكير السيدات في هذا الأمر وذاك واهتمامهن بكيفية تنفيذ ما حسن في تقديرهن دليل على تغيير كبير جارٍ في النفوس .

أما حفلة الرجال فقد حضرها كل عالم وكبير ووجه . ولو كان المؤتتون من النشء الجديد القاتل بسفور المرأة لوجدنا الأمر طبيعياً ، ولكنهم كان أكثرهم من ذوي العمام ومن المطريشين الذين هم أقرب إلى حزب المحافظين منهم إلى أي حزب آخر . وقد فاه أحدهم بهذه الجملة الخطيرة : « أيها الرجال قولوا للنساء إننا نكرم النساء العالمات كما نكرم أعظم الرجال » .

ولكن كيف يذهلنا ذلك وقد كان دوماً أهل الذكاء والنبوغ مفيدين بمعاتهم كما في حياتهم . فإذا ما أسبلت منهم الجفون على العيون الجامدات فكأنما النفس منهم تتقمص في الأقوام باعثة فيهم اهتماماً وتحمساً لما جاهدوا من أجله طويلاً . فهم بالشمعة التي يشتد لمعانها عند الإنطفاء شبيون .

لما قامت نساء الغرب بحركتهن لم يؤيدهن فيها من الرجال إلا آحاد وقد هزأت بهن منهم مجاميع . والآن وقد مرّت أعوام الجهاد والألم فقد استملن إلى قضيتهم أعلى أصوات أمريكا وأوروبا وأعماقها تأثيراً . أما عندنا فإذا ذكرت الحركة النسائية ذكرنا أن الرجل كان موجدتها ومؤيدها وإنه ما زال ساعياً في تنشيطها . وقد جاءت حفلة الرجال لذكرى باحثة البادية أتم مصداق لهذا الإقرار .

مي

تأبين باحثة البادية^(١)

سيداتي ،

لما اجتمعتُ باحثة البادية للمرة الأولى في ١٩١٤ بعد تصفُّح مجموعة «النسائيات» لم أستشعر بأنه قُدِّرَ عليَّ أن أقف لتأبينها عمّا قريب . يومذاك لم أشعر إلا بجاذبٍ تخفّى بي من دور الإعجاب بقلمها إلى دور الميل إلى شخصها ، لأنها كانت من الذين خصّتهم الطبيعة بقوة مغناطيسية تجذب الغريب فيفطن لنفسه وقد وجد فيها مكاناً خالياً ينتظرهم منذ زمن طويل . وليس موجد تلك القوة ما يسميه البشر جمالاً وذكاءً أو لطفاً وظرفاً بل إن مستودعها جسمٌ أجوف قائمٌ في الجانب الأيسر من الصدر - ذلك الجسم الذي ما ذكره حتى أكثر الناس طيشاً وزهواً إلا وطأطأ الرأس كمن ينتبه لمعنى عميق من أقدس معاني الحياة .

إن عصرنا عصر الاختراع والآلات . فبالآلات هبط الإنسان إلى أعماق الماء وجعل له أجنحة تسابق طير السماء ، وبها استبعد عناصر الأرض وكشف أسرار الكهرباء . من البواخر العظيمة التي تحذف الأبعاد وتلاشي البحار إلى الساعة الذهبية الصغيرة التي نقيس بها الزمان ، في كلٍّ من أحوالنا نرى

(١) خطبة أُلقيت في الحفلة التي أقامتها السيدات برئاسة حرم شعراوي باشا في فناء سراي الجامعة المصرية بمناسبة مرور عام على وفاة الفقيدة .

الآلات ممثلة دوراً مهماً . لكنَّ هذا الجسم الأجوف القائم في صدر الإنسان ، هذا القلب يشريُّ العجيب ، ما زال أتمَّ الآلات وأقواها . بل هو أكثر اقتداراً من أعظم القواطر الحديدية على الإطلاق إذا جعلنا المقابلة على نسبة الحجم الصحيحة . آلات الفولاذ والحديد ، تلك الصناديد المعدنية التي تزرح الجبال وتُدَمِّر المدائن والحصون ، تملُّ العمل وتطلب الراحة ، وهذا الجَبَّار الصغير المخلوق من دمٍ ولحم لا يعتريه إعياء ولا سكون لأن في وقوف حركته انتهاء الحياة الجسمية ، وفي سكونه وراحته شقاء العواطف البشرية .

وما كانت قوته الوحيدة في تأدية وظيفته واستطراد النبض ليل نهار على حساب ٧٢ مرة في الدقيقة ، ومئة ألف مرة في اليوم ، وأربعين مليون مرة في السنة ، بل كانت قوته الكبرى في ذلك المعنى المتبسط الشامل الذي أطلقه عليه الثيوصوفيون والشعراء إذ جعلوه هيكل العواطف والرغبات ومنهل الحبِّ والإشفاق والمكارم . ليقل العلماء ما شاءوا من أن العواطف تتولَّد في الدماغ . أما نحن صفار الخلاق فحسبنا شعوراً بأنَّ في رياض القلب تُغرَّد أصوات الطرب ، وترفرف أجنحة الهناء ساعة نكون من السعداء . وأن القلب منا يمسي صحراء محرقة تجول فيها لواعج الأحزان ويتعالى في تيهها نجيب الوداع والحسرات عندما نكون من النعساء . حسبنا علماً أن هذا القلب الصغير يُسِير العالم وإن من كان كبير القلب فهو في الحقيقة قائد العالم .

لقد تصلَّب قلب الرجل قليلاً - أو كثيراً - في حرب الاقتصاد التي ما فتىء يُشهرها في ميادين الحياة ، فلحق ببعض عواطفه جفافٌ وتوترٌهما من مقتضيات المنافسة والجهاد . على أن القلب ما زال مملكة المرأة ، وفي هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمع القوة والدقة والكآبة والصفاء ، ويختلط

التأمل بالأحلام والقنوط بالرجاء . عندما لا يتكلم من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعن في صوت المرأة أنيناً كأنما هو بقية زفرة أو تنمة بكاء . وحينما يعثر الرجل بادراك ذروة السؤدد ونيل بعيد الغايات ترين المرأة منحنية على نفسها كمن ينحني على جرح بليغ ، تربنها منحنية على قلبها لأن شيئاً يظل نائحاً فيه . وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الأبهة والتبجيل والأعظام ، وتلك الحفيرة التي تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان .

كان هذا القلب القدير يتلظى مضطرباً في صدر باحثة البادية على مقربة من ذكائها الفطري ، ولم تكن ألقاها إلا شرار وميض . به اختبرت البيئة المصرية في كثير من مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها . ولما أن هالها ما شهدت من ذل وتعاسة غمست قلمها في مداد إنما هو سِبال قلبها الناري ، وكتبت فصولاً خالداً . إن محاسن التمنيق والإنشاء تُعجب وترضي إلى حين ، لكن يا لسرعان ما تدرج تلك المحاسن في أكفان السيان لأن الطبيعة البشرية لا تحتمل الإعجاب المتواصل . أما الكلام المنطلق من القلب كقطع متقدمة فيدخل القلوب مباشرة بلا وسيط ، ويمتدح بها لأنه يُعبر عنها ، يمتدح بها حتى يصير جزءاً منها يأبى التفرق والإنفصال .

وكما أنها أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية كذلك رأت يصيرتها النقية أكثر طرق الإصلاح اعتدالاً وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي . وقارء «النسائيات» يقف على خطتها الإصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائراً مستبداً ولا المرأة ساخطة متبردة ، بل يتصافى الإثنين فتصير هي له أخلص الأصدقاء وأوفى المساعدين ، ويصبح هو لها أخلص الأصدقاء وألين المرشدين . فيسيران في سبل الحياة وقد جعلهما التفاهم متغلبين على المصاعب ، متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة .

وذلك أقصى ما ترمي اليه العائلة الاجتماعية في كل زمانٍ ومكان .

كانت الباحثة زوجاً لعبد الستار بك الباسل ، واستمحقن بالوقوف قليلاً عند هذا الاسم . اذكرن أنها كانت تكتب في سنة ١٩٠٧ و ١٩٠٨ و ١٩٠٩ ، وتصورن حال ذلك الوسط منذ اثنتي عشرة سنة يوم كان القوم يرمون قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الإثم الفظيع الذي يدعى المتأدبة بإصلاح المرأة !

إن إعجاب الناس بامرأة لا يسلم من لازم متعده هو انتقادهم له . فإذا كان الجمهور شديداً على الرجل ، بحسب نقضه بعض ما يلي من العادات عدواناً لبني الإنسان ، فما قولكن في ظهور امرأة ذات رأيٍ شخصيٍّ وذاتية حرة في ذلك الوسط الرجعي ؟

يجب أن يكون الوسط راقياً جداً ليقدر الفرد الراقى وإلا أهمله وعدّه نبوغه جنوناً ، ورأى في توجّهه من التقهقر والانحطاط وقاحة وشروداً .

غير أن الباحثة كانت على حكمة مكنتها من استخراج الخير من الشر . فبدلاً من أن يفضيها تعنت الناقلين ، انجلت لها الحقيقة كما تتجلّى أحياناً في لحظات الألم ففهمت أن الطريقة المثلى لتهديب الرجل وإعلاء مداركه هي تهديب المرأة وإعلاء مداركها ، وإن الوسيلة الفريدة لجعل الشعب المصري حراً نبيلاً عظيماً هي تحرير الأم من قيود الغباوة والخمول وإفهامها جلال النبل القومي والعظمة الوطنية .

ولقد وجدت في قرينها منشطاً كبيراً .

إنه كان في وسعه أن يحطّم قلمها بإشارة صغيرة ، وبكلمة واحدة كان يستطيع إسكات ذلك الصوت الفعّال . بيد أن عبد الستار بك عربيٌّ صميم ، وله من وراثته الكريمة ما يذكره بما كانت عليه نوابغ النساء العربيات من

حرية وأنفة ففاخر بأن تعيش في ظلّه من تُمائلهن عزّةً وبياناً .

فليسّر اليه الآن شكر المرأة المصرية مقروناً بأي الثناء !

أما أنت ، يا أم الباحثة ، فلك أنقى ما في القلوب من احترام وإجلال !
وساعة تذهبين لزيارة حفي بك ناصف الراقد هناك في مدينة الذين رحلوا ،
قولي له إن اسمه مجيدٌ مرتين : مجيدٌ بعلمه وفضله ، ومجيدٌ لأنه والدُ امرأة
مجيدة ! هذا كلّ ما أردتُ أن أقول ، يا سيداتي .

وحول القلب الفتيّ الذي كان يذوب إشفاقاً على المرأة الضعيفة المعذبة
ويلتهب غيرة على مصر والمصريين ، حول الصوت الصامت الذي طالما ارتفع
خطيباً والقلم الجامد الذي طالما تحرك كاتباً اجتمعنا اليوم ، المسلمة منا
والقبطية والسورية ، لنحيي أختنا الخالدة ولنمزج ذكرها بذكر هذه الأيام
المملوءة حماسة وأحزاناً .

نعم ، المرأة المصرية التي انبرت بالأمس تهتف في الجماهير هتاف الوطنية
والفخار قد عقدت اليوم في هذه الجامعة الأهلية المباركة اجتماعاً معزياً في
كآبته ، سامياً في معناه ، وحيداً من نوعه في تاريخ النهضة الحديثة لبنات
هذا الوادي العظيم !

فليحمل الهواء حديث اجتماعنا إلى من لم تحضره من أخواتنا في القاهرة ،
وفي الأرياف ، وفي الثغور ، ولينقله إلى نساء سوريا وبغداد وسائر الأقطار
العربية والأقطار الغربية التي ينشدُ نفرٌ من نزلاتها أبياتاً نظمت بلغة القرآن !
ولتردّد النساء اسم المرأة المصرية الكبيرة « باحثة البادية » فيكون هذا الاسم
عنوان نهضتنا النسائية الجديدة وعربون تضامن الشرقيات على رغم تباعد
الديار واتساع البحار !

مي

أبرز ما قيل في كتاب باحثة البادية

يوم صدوره في مصر سنة ١٩٢٠

«باحثة الباريّة، أول كتاب من نوعه، بقلم مي»

(الدكتور فؤاد صروف - المقدمة)

«الكتاب صورة بديعة رسمته يد آتسة فلم تخل من الزينة التي تحبها النساء . صورة صادقة اشترك في نقشها الخيال والعقل والقلب . فلم تخرج إلى غلو البهرجة ، ولم يتلفها جفاف البحث المجرد ، ولم يموها تغرض القلب الصديق . فجاءت آية يرضى عنها الفن ولا تنكرها الحقيقة » .

(النشرة الاقتصادية المصرية)

« لا نخطيء إذا ما وصفناه بحلال الشأن في موضوعه وأسلوبه ومبناه ومغزاه . هو خير ما أخرجت لنا المطابع في العهد الأخير - ولا مدح - » .

(الأهرام)

« اتخذت النسق المصري في النقد وهو النسق الذي يجب على حملة الأقلام فينا أن يتخلوه » .

(الأفكار البرازيلية - سان باولو)

« صورة امرأة رسمتها يد فتاة لم تقتصر على المنظر الخارجي بل صوّبت أشعة بدهاء المرأة إلى غرف العقل ومخادع النفس وأخرجت صورة ترتاح إليها النفس ورسمتها بصدق وإخلاص وهذه مزية إن لم تنفرد النساء بها فإنهن أقدر فيها من الرجال بما أوتين من قوة البدهاء القطرية ورقة النظر

والشعور ... هي معروفة لجمهور القراء في البلدان العربية بسعة العلم والإحاطة
بأطراف ما يتناوله قلمها من المواضيع ببلاغة ورقة تمنان على ما جاد الله
عليها به من المواهب وتشهدان بما وعت من علوم الأوائل والأواخر بلغاتهم
المختلفة . ولكن في الكتاب فوق ذلك كله ما يدل على حبها واحترامها
لمن ترجمت بها ووصفتها في حياتها ورثتها بعد مماتها .

(المقطم)

« تناولت الموضوع كعادتها بالشرح والتعليق وجميل الاستدراك
في صيغ الكلام المنضد كأنه أسلاك الفريد تجلت فيه مواهبها النادرة وآدابها
السامية » .

(بيت المقدس - القدس)

« للكتاب عندي ثلاث ميزات ترفعه إلى أوج الكتب القيمة التي يستقي
ها تاريخ الأدب مكانة : الأولى - إنه أول كتاب فيه نموذج للنقد العلمي
المفيد . الثانية - إنه على رأي صديق أديب أول كتاب من كتب النهضة
الحديثة وفا فيه صديق لصديقه وفاء علمياً . الثالثة - إنه أول كتاب في
تاريخ سيدة عربية وضعت سيدة عربية » .

(الأهرام - بقلم الدكتور منصور فهمي
استاذ الفلسفة في الجامعة المصرية)

« لم تترك موضوعاً جال فيه قلم باحثة البادية إلا وجاءت بشواهد منه
وعززت ذلك بمعلوماتها الخاصة عنها . ولكننا لو جمعنا كل ذلك لما أتى
على ربع الكتاب وما بقي منه هو آراء وأفكار وتأملات للكاتبة نفسها ساقها
إليها البحث وكلها درر كتبت بأجمل لغة وأفصحها » .

(« ألف باء » دمشق - بقلم يوسف العيسى)

« فإذا كانت باحثة البادية فخر مصر ، فإن الآنسة مي فخر سوريا
وعنوان مباهة الشرق ... تطير بها الأحلام إلى ما لا حد له من الآفاق الملوّنة

الفاتنة فتكاد تقف على عتبات الغيوب ولولا الفناء لاستباححت حرمة هياكلها الأبدية . وإذا عرضت لها عوارض الحياة العادية فما هي إلا أن تمسها أو تلقي عليها نظرة حتى يتقلب كلوحها إلى بهرج وتزويق وإشعاع كأنها لمستها بالمخصرة العجيبة . وإذا تأثرت بالأمور الخارجية توجت أعماق نفسها كما تضطرب اللجة فأخرجت منها كنوز الدرّ واللؤلؤ . وإن نشطت إلى بهجات الطبيعة ألقت عليها نقاباً من الشف الذي تنسجه المنى على نول العمر فهو آية الآيات . هذه هي العبقريّة تتنكر ولا تركب ... ولها هجمات على اللغة العربية ونزعة في التعبير قد استقلت بها استقلالاً .

(خليل شيبوب في « البصير »)

« استحققت أن تدعى باحثة الحضارة كما دُعيت تربها باحثة البادية » .

(مجلة المشرق « بيروت »)

« إذا كان كتاب قاسم أمين هو كتاب السنة التي نشر فيها فكتاب مي هو كتاب هذه السنة لأكثر من سبب ... شيق كالرواية ، مفيد كمقالة بقلم أبرع كاتب وصفي . هو أثر في ذورقة عظيمة يجوز لأكبر كاتب أن يفاخر به » .

(« الايجشن غازيت » الانجليزية)

« غدا لنا كتابها آية في النقد والانصاف وبدا لنا كوكباً دريئاً لا ينكر ضوءه الثاقب » .

(دار السلام - بغداد)

« حاملة علم النهضة النسوية في هذه البلاد ، فقد يزت بما كتبت وبما عربت أنضج الكتاب وأبعدهم خيالاً . فأخونا أمام تصوراتها الرؤوس احتراماً وصفقوا لأسلوبها الكتابي إعجاباً » .

(المنبر)

« كتاب نفيس تجلت فيه محاسن فتاوى المسيحية والإسلام » .

(الاتحاد العربي - سان باولو ، برازيل)

« ميّ في هذا الكتاب غير ميّ الخيالية التي أعدها في كتابتها السالفة ... وعلى ذكر المقابلة (بين قاسم أمين وباحثة البادية) أقول إنها تكاد تكون درس نفسية قاسم أمين قائماً بذاته ، ولكنه في الحقيقة درس واف شيع ... كتاب خالد في إمراة خالدة » .

(شحاته عبيد في « الوطنية »)

« كتاب لم تبق صحيفة عربية راقية لم تفرد له بحثاً خاصاً شائقاً » .

(« الشمس » بوينس ايرس - الأرجنتين)

« ميّ كالفضاء اللامتناهي تسبح فيه كواكب الأفلاك غير مدركة له حدوداً ولا مثيرة في نكوداً . فكانت سعة أفكار ميّ وسطاً لحرية روح باحثة البادية سطعت فيه أبكار أفكارها فاخترت أشعتها مهجة الديجور إلى مدى سحيق ... وسيظل تعليق ميّ على باحثة البادية حجة هذا القرن على قرون عديدة » .

(حنا خباز مدير كلية حمص في « السائح » نيويورك)

« لها بين كبار المفكرين في مصر منزلة سامية . يقرأ الانسان ما تكتب فيشعر أنه يقرأ جديداً لم يألّفه . ويرى في معانيها نوعاً مستحدثاً . فهي مبدعة في أسلوبها وفي تفكيرها أيضاً . وإذا جلستَ تحدثها وجدتَ كذلك في حديثها شيئاً جديداً . فرأس الآتية ميّ من الرؤوس المنتجة التي لا تكفي بما حفظت من مختلف العلوم وما اتقت من اللغات العديدة ... وإذا كانت قد أطربت القراء بنغماتها الموسيقية في كتاباتها وخطبها ، وغذت نفوسهم بما وراء تلك النغمات من المعاني السامية فإنها قدمت اليهم اليوم كأساً شهية من عصير

فكر وقاد ونظر ثاقب : كأس يجمع إلى موسيقية النغمات وسمو المعاني
جمال الوفاء وعذوبة الاخلاص وجلال الصدق ولذة الجديد .

(السفور)

« جاء كتابها رثاء مفيداً ودرساً اجتماعياً جديداً وتقداً اخلاقياً سامياً
يجب أن يكون قاعدة من القواعد التي يتمشى عليها الناقدون والمؤيدون و مترجمو
حياة الناس . »

(« الشعب » - نيويورك)

« لقد أقرأتني كتاباً ... نحن في زمن اشباه الكتاب فيه كثير ولكن الكتاب
الحقيق بهذا الاسم قليل . وعلى رأس هذا القليل لا أتخشى أن أضع مجموع
تلك الفصول التي كشفت بها النقاب عن حقيقة باحثة البادية ... والله ما بين
تينك الدفتين من الجنات والكوثر الجاري بين الضفتين . هنالك الشعر إلا ما
يتقله من القيود ، شعر الصلاح والإصلاح للمجتمع البشري في بعض المهمل ،
شعر الحلى اللفظية وغير اللفظية تعيرها الطبيعة السمحة ، المتنوعة ، الشائقة
المشوقة صنوف روائعها وطياتها عيراً ولوناً ونوراً . هنالك النثر . وأي
نثر هو . النثر الجديد . كلام الزمن الذي نعيش فيه متقحاً ، مصححاً مقلداً
كل معجب ورقيق من زينات الفصاحة ، مضمناً كل مطرب ورقيق من
نفحات الطهارة والقوة والسماحة متدرجاً في براعة الأسلوب أحياناً إلى أن
يوهم أمثالي وهم يقرأون صامتين آياتك الغريدة أو كلماتك الرهية انهم
يرونك في جلال مواقفك العامة ويسمعونك خطيبة . »

(خليل مطران في « الاهرام »)

« انى لي معرفة ما سيحيط بروحي من أرواح الإعجاب والدهشة
والسرور بمعاني الكتاب التي صعدتُ بها إلى سبع سماء اللذة - قبل استلامه .
« هو هرم أدبي أقامته سيدة سورية فوق ضريح سيدة مصرية ، وهو زفرة

إصلاح حارة أخرجتها صدور أبناء النيل فرددت صداها بنات الشرق
الضاريات في جبال الغرب وسهوله . بل هو نقيض الحرية ينفخ في وادي الفراعنة
مذكراً إياهم بصوت نصير المرأة الأول المرحوم قاسم أمين ومنبهاً لهم لضرورة
العمل بأقواله في بدء نهضتهم الاستقلالية الجديدة .
(عفيفة كرم في مجلة « الأخلاق » نيويورك)

« من يقرأ انتقاد ميّ كما قرأته وينظر إلى نفسها المتجلية في كتابها
يرَ هناك عظمة وإخلاصاً يندر وجود مثلها وفي الدرجة التي هما عليها
في نفسها . وهذه العظمة وهذا الإخلاص كادا ينسيانني بلاغة هذه الآتية
والأميرة بين الكتاب والكاتبات . »

(جبر ضومط ، استاذ اللغة العربية
في الجامعة الامريكية في المقتطف)

« لعلني لم أقم بالواجب نحو نبوغها عندما قلت أنها أكتَبُ كاتبة ،
وها أنا أرضي ضميري وأقول أنها تحسب بحق بين كتاب الطبقة الأولى ،
وهي في نظري أكثرهم استحقاقاً للأفضلية للأسباب الآتية : أولاً نسبة
إلى سنّها إذ لم تقع عيني إلى اليوم على كتاب عربي يمكن أن يقاس بكتاب
الشرقيات وحالة أدمغتهن . وكثير على ميّ - وهي بنت الشرق - أن تعادل
كبار الرجال علماً وإطلاعاً ونبوغاً ... وهي تنتفض بحمى الحياة ذات
إرادة جذابة ، عميقة غيورة ، والقوة المفكرة فيها قوية ، شديدة ، حضانة ،
مستأنة ... أما كتابها فثلاثة مؤلفات في واحد . نظريات قاسم أمين في
تحرير المرأة ، وأجمل ما كتبه باحثة البادية في إصلاح شؤونها ، وشروح
ميّ على هذا التحرير وهذا الإصلاح . »

(سلمى صايغ كساب في « المرأة الجديدة » بيروت)

« يا ابنة العظمة وفتاة النبوغ ! أما علمك فغزير وإنما روحك روح
 بطل كبير ... يا ربة الساعة الخالدة ! ان قوتك في بساطة الأسلوب ومثاقفه ،
 وسمو الخيال ، وخروجك عن دائرة الرجال . مَنْ من الرجال يناجي ساعته
 بمثل ما ناجيت ؟ والله لو اهتمدتُ اليها لاشتريتها لتحفظ في دار الآثار ...
 كم من كلمة كتبها يا مميُّ أهاجت عواطفكم وكم من فكرة كادت تسيل
 من أجفانها دموعي . الكتاب من أوله إلى آخره يعيد إلي ذكر شبابي . »
 (محمد جلال في « الأهالي » الاسكندرية)

الفهرس باحثة البادية

٩	مقدمة
١٥	باحثة البادية
١٦	باحثة البادية (١) كيف عرفتھا
٢٣	المرأة (٢)
٣٥	المسلمة (٣)
٤٦	المصرية (٤)
٥٥	الكاتبة (٥)
٦٦	الناقدة (٦)
٧٩	المصلحة (٧)
	قاسم أمين وباحثة البادية
٩٣	المقابلة بينهما (٨)
	قاسم أمين وباحثة البادية المقابلة
١٠٩	بينهما (تابع وخاتمة) (٩)
١٢٢	بين كاتبين إلى باحثة البادية
١٢٦	إلى الآنسة مي
١٢٧	إلى الآنسة مي

١٣٠	إلى باحثة البادية
١٣٤	الساعة المفقودة
١٣٨	إلى الانسة مي
١٤٤	باحثة البادية مرثاة
١٤٧	تأثير باحثة البادية
١٤٩	تأبين باحثة البادية
١٥٥	أبرز ما قيل في كتاب باحثة البادية
١٥٧	باحثة البادية أول كتاب من نوعه ، بقلم مي

مؤلفات مي زياده

أدب - قصة - نقد - اجتماع - تاريخ - عمران - فن - حضارة

كلمات وإشارات جا	باحثة البارية
كلمات وإشارات جء	وردة اليازجي
ظلمات وأشعة	عائشة تيمور
الصعائف	بين الحزر والمد
سوانح فتاة	المساواة
ابتسامات ورموع	غاية الحياة
رجوع الموجة	أحب في العذاب

